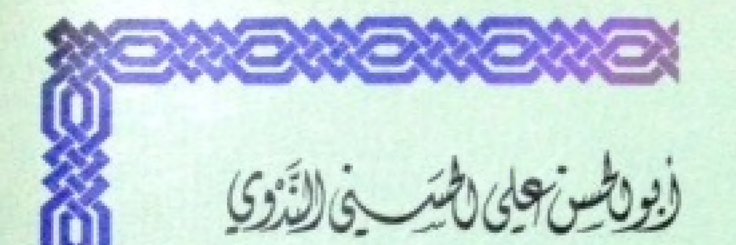


أبو الحسن علي الحسني الندوي

# تأملات في القرآن الكريم

دار القلم
دمشق




أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١


تأملات
في القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم.

وبعد، فيسعد صاحب هذه المقتطفات من «تأملات في القرآن الكريم» مما فتح الله به عليه حين دراسته للكتاب الحكيم، وما عرضت له من معانٍ وفُتِح له من آفاق حين تناوله لتفسيره في دروسه ومقالاته، أن يقدّم ذلك للقرّاء ودارسي القرآن، راجياً من الله الأجر، والسّتر، والحشر. أما الأجر فعلى الاشتغال بالتدبّر في القرآن، والدعوة إليه، وأما السّتر وهو التغطية فعلى ما صدر من تقصير وزلّات لا يخلو منها مجهود بشري، وأما الحشر فهو الشمول في زمرة خدمة القرآن والمتدبّرين فيه، ولو كان موضع كاتب هذه المقالات في صفوفهم الخلفيّة، أو المواضع الجانبيّة، فلكلٍّ من ذلك شرف يغتبط به المغتبطون، ويحرِص عليه الطامحون الطامعون.

لم يزل صاحب هذه التأملات تلميذاً متواضعاً من تلاميذ مدرسة القرآن الإيمانية والعلمية، والدعوية الإصلاحية، يدين لهذا الكتاب العظيم، في ثقافته وتدبّره، وكتاباته وبحوثه ومؤلفاته، وفي خطبه الشعبية، ومحاضراته العلمية: ما لا يدين لأي كتاب أو دراسة علمية،

ومدرسة فكرية، وأدب من آداب اللغات والثقافات، يشهد بذلك من اطّلع على ما وفّق الله إليه كاتب هذه السطور من كتابات وخطابات.

وقد كان الفضل الأكبر في ذلك ـ بعد توفيق الله تعالى ـ لتلاوته للقرآن، وتدبّره فيه، مكتفياً بمتن القرآن، مستشعراً إعجازه وحيويّته وخلوده، وصلوحه لكل زمان ومكان، وتيسّره لكل طالب متدبّر، وذلك بعدما درس أمّهات كتب التفسير، واستفاد من كبار الأساتذة المختصّين في الموضوع واطّلع على أكثر ما نشر من بحوث وتعليقات وكتب عصرية، واشتغل بعرضه وشرحه أمام مجموعات كبيرة من المثقفين، والعامّة والخاصّة، في حلقات قرآنية في بعض المراكز الدعوية والشعبية في بلده سنين طوالاً.

وعُيِّن الكاتب معلّماً للتفسير ـ مع موادّ دراسية أخرى ـ في دار العلوم التابعة لندوة العلماء في الثلاثينات الأولى من التقويم الميلادي، واستمرّ على ذلك نحو عشر سنين، درّس في خلالها متن القرآن في فصول مختلفة، وأملى مقالات تمهيدية تهيّىء العقول والأذهان لدراسة القرآن العميقة، والإيمان بإعجازه وخلوده، وتيسّر طرق الانتفاع والنفع به في مجالات الدعوة، والعلم والبحث. ونشرت مجموعة هذه المقالات بعنوان: «**المدخل إلى الدراسات القرآنية**» في «أردو»، ولغة مسلمي الهند، والعربية[1].

ونشرت له مقالات تناول فيها تفسير بعض السّور والآيات في مجلّة «الضياء» ـ مجلة «الندوة» ـ العربية التي كانت تصدر عن ندوة العلماء في الثلاثينات الأولى الإفرنجية، رئيس تحريرها صديق الكاتب

(١) نشرته دار الصحوة بالقاهرة.

الأديب الكبير الأستاذ مسعود الندوي، وفي مجلة «المسلمون» الغرّاء، التي كانت تصدر من القاهرة، ثم من دمشق وجنيف، رئيس تحريرها صديق الكاتب الحبيب الدكتور سعيد رمضان، وكان بعض هذه المقالات أحاديث إذاعية، كذلك أذيعت من إذاعة دلهي (القسم العربي).

كانت كل هذه المقالات والأحاديث مشتّتة مبعثرة في كتب ورسائل مطبوعة أو صحف مخطوطة، معرّضة للضياع، فلما جدّ طلب بعض المطّلعين على هذه المقالات والأحاديث، وأبدى بعض الناشرين وأصحاب المكتبات ـ في مقدمتهم الأستاذ محمد علي دولة صاحب دار القلم في دمشق ـ رغبتهم بذلك، رأى الكاتب تحقيق هذا الطلب والموافقة على فكرة نشر هذه المقالات والأحاديث من تيسير الله تعالى، وإتاحة الفرصة لنشر هذه المقتطفات التي تتّصل بكتابه الكريم، وتنضوي إلى راية القرآن، فهو المبرّر لنشرها وإذاعتها، وتلك قيمتها. عسى الله أن ينفع بها الطالبين، المتدبّرين في القرآن، وتفتح لهم بعض آفاق جديدة من التدبّر في معانيه، وشواهد بلاغته وإعجازه، وخلوده وعمومه، لكل جيل من الأجيال، ولكل عصر من العصور، ولكل مجتمع من المجتمعات، فالقرآن لا تنقضي عجائبه ولا تبلى جِدَّته، كما قيل.

والحمد لله أولاً وآخِراً...

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دارة الشيخ علم الله الحسني
رائي بريلي

٩/ من صفر ١٤١٠ هـ
١١/ من سبتمبر ١٩٨٩ م



# سورة الفاتحة، جمالها، وجامعيتها وتأثيرها في الحياة

تأمَّل في سورة الفاتحة، التي هي الدُرَّة الفريدة في المعجزات السماوية، وقطعة رائعة من القطع القرآنية البيانية، لو اجتمع أذكياء العالم وأدباء الأمم، وعلماء النفس وقادة الإصلاح وزعماء الروحانية، على أن يضعوا صيغة يتفق عليها أفراد البشر على اختلاف طبقاتهم، وعلى تَنوُّع حاجاتهم، وعلى تشتُّت خواطرهم يتقدمون بها أمام ربهم، ويتعبّدون بها في صلواتهم، تُعبِّر عن ضمائرهم ومشاعرهم وتفي بحاجاتهم وأغراضهم؛ لما جاؤوا بأحسن منها: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلإنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ، لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ ٱلْعَظِيم﴾[2].

وقد ٱفْتُتِحَتْ بالحمد، وهي الكلمة الجامعة بين الشكر والثناء، ومن الكلمات البليغة المعجِزة، التي لا يمكن ترجمتها في لسان آخر، والحمد خير ما يبتدىء به عبد عرف نعم الله التي لا تحصى، وعرف قدْره، وهو خير ما يفاتح به في هذا الموقف الشريف، وفي هذا المقام المحمود.

---

(١) سورة بني إسرائيل: الآية ٨٨. (٢) سورة الحجر: الآية ٨٧.

ثم يقرر المصلّي أن الرب الذي يحمده، ويقوم يستعين به ويعبده، هو ليس رب قبيلة أو شعب، أو أسرة أو فصيلة، أو بلد ووطن، إنما هو رب العالمين، العقيدة الغريبة الثائرة، التي تثور على جميع التقسيمات المصطنعة المزوّرة، التي جنَتْ على الإنسانية أكبر جناية.

وهكذا يعلن المسلم وحدتين، وهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام الإسلام، في كل زمان ومكان، وهما وحدة الربوبية، والوحدة البشرية، وحدة نسل بني آدم من غير فرق بين بلد ووطن، أو لون أو دم.

فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان أخو الإنسان مرتين، مرة - وهي الأساس - لأن الرب واحد، ومرة ثانية لأن الأب واحد: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِساءاً، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]. وفي شرحه وتطبيقه، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع: «إن الله قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية، وفخرَها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى»[3].

ثم يذكر المصلّي من صفات الرب الكريمة، الكثيرة، التي

---

(١) سورة النساء: الآية ١. (٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٣) رواه الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

عرفها وآمن بها، صفة الرحمة التي هي من أليق الصفات ـ وكلها لائقة كريمة ـ بهذا الموقف الذي يقفه المسلم عابداً خاشعاً، داعياً مبتهلاً، محتاجاً فقيراً، تائباً آيباً، والمقام مقام الرجاء لا اليأس، ومقام التفاؤل لا التشاؤم.

ثم يذكر ويتذكر يوم الدين، يوم الجزاء والعقاب، الذي يتجلى فيه مُلكُ الله وملكوته، في أروع مظهر، لا ينازعه فيه ملك زائف أو حكم عارض: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ؟ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]، فيجدد في نفسه الإيمان بالآخرة واستحضارها الذي هو مصدر الخوف والمراقبة، ومصدر الرقابة على النفس والضمير، وما أحوج المسلم ـ وهو الذي يستقبل الحياة المليئة بالإغراءات، ويخوض فيها ـ إلى هذا الاستحضار.

ثم يعلن في كل تأكيد عرفته لغة العرب التي نزل فيها القرآن، واختيرت لتكون لغة الصلاة العالمية ـ الرسمية ـ وفي أبلغ أسلوب من الأساليب البيانية العربية، أنه لا يعبد إلّا الله ولا يستعين إلّا به[2]، وما الحياة إلّا عبادة واستعانة، وبهما يتصل الإنسان بالإنسان، والضعيف بالقوي، والفقير بالغنيّ، والمحكوم بالحاكم، والعبد بالمعبود، فإذا جُرِّدتا وأُفرِدتا لله تعالى، فُكَّت السلاسل والأغلال، وحُطِّمت الأوثان والأصنام، وبطل الشرك وزالت الفتنة، وكان الدين كله لله. أعظم إعلان يعلنه مسلم، وأكبر تعهد يتعهده، فلينظر ما يقول، وليكن على نفسه حسيباً رقيباً، فكل ما يواجهه في الحياة خارج الصلاة: إما يدعوه

(١) سورة المؤمن: الآية ١٦.

(٢) انظر فائدة التقديم لضمير المنصوب المنفصل، وما يفيده من الحصر والتأكيد، وما فيه من النّكات النحوية والبلاغية، في كتب التفسير والنحو والبلاغة.

لخضوع واستكانة، وإما يدعوه لسؤال واستعانة، وقد كفر بهما جميعاً، وثار على كل من تزعَّمهما، أو تظاهر بهما.

ثم يدعوه للهداية للصراط المستقيم، التي هي أعظم حاجاته، وأعز مطالبه، وهي التي بُعثت لها الأنبياء، وأُنزلت لها الصحف، وقامت عليها سُوق الجنة، وهي التي لا قيمة لشيء إذا فُقِدت، ولا نقص في الحياة والسعادة إذا وُجِدت، وهي التي فُطِرت النفوس البشرية على حُبّها وطلبها والبحث عنها، والجهاد في سبيلها. ولكن الهداية لا تقوم في الخلاء، ولا تُفهم إلّا بأهلها، ولا تتمثل إلّا في أصحابها، وأولئك هم الذين أنعم الله عليهم: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ﴾[1]. وقد حثّ القرآن ـ وجميع الصحف السابقة ـ على حبهم والانتساب إليهم والانضواء إلى رايتهم والاقتداء بهديهم: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2]. ويتبع ذلك التبرُّؤ من الذين جانبوا الهداية وكفروا بالنعمة واتبعوا الهوى، وسلكوا طريق الردى، أولئك الذين أسرفوا في العناد، وبالغوا في الإفراط، فحلَّ عليهم غضب الله، أو بالغوا في التحريف وتورَّطوا في التفريط، فوقعوا في الضلال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3].

وهنا يتجلّى إعجاز القرآن، وإني أعتقد أن الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم، تصف أبناء المسيحية، تكفي سبباً في إيمان دارس منصف بالقرآن وإعجازه، وأنه يصدّق النبيّ الأُميّ الذي نزل عليه، وكونه منزّلاً من عند الله عزّ وجلّ. ما أروع الحقيقة

---

(1) سورة النساء: الآية ٦٩.
(2) سورة الأنعام: الآية ٩١.
(3) سورة الفاتحة: الآيتان ٦ ـ ٧.

التـاريخية التي نـطق بها القـرآن الكريم على لسـان أمّي، ولـد في الصحراء وعاش فيهـا، والتي يصدّقهـا التاريـخ في أدب جمّ، وفي خضوع وانقياد واستسلام، ويدهش المؤرخون عندما يفكّرون في مدى صدق هذا التعبير: كلمة «الضَّلالة».

فقد تُفهم منها معانٍ كثيرة، منها فساد العقيـدة وفساد الجهـل والانحراف، والحيد عن الطريق، وما إليها، وكلها ضلال، ولكن كلمة الضـلالة أعمق معنى، وأقـوى أثراً، وأبعـد مدى من هـذا الضـلال الجزئي المحدود. إن دراسة الإنسان التاريخية وقوّته الاستنتاجية وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرة ومنقادة عندما تلاحظ أن النبيّ الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قطّ، ولم تكن لديـه وسائـل معلومـات عنهـا، ولم تثبت عنـه زيـارة بلد مسيحيٍّ إلاّ لسـاعـات معدودات، كيف أجرى الله على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة حيث قـال بـالنسبـة لليهـود: ﴿ٱلْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بينمـا قـال بـالنسبـة للمسيحيين: ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾.

إن هذه الكلمات وحدها تكفي دلالة على كون القرآن الكريم منزّلًا من الله عزّ وجلّ، وكونـه وحياً إلٰهيـاً، حيث كان بـالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من كلمات اللغة العربية، فقد كانت من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تستخدم خمسون كلمة تؤدي هذا المعنى، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعاً على المسيحيين.

غير أن الله أراد فرقاً واضحاً مكشوفاً بينهم وبين اليهود، إذ أطلق على اليهود: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فمن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ وفي ضوء اعترافاتهم أنفسهم، ونظراً للأثر السلبي التخـريبي الـذي تركـوه على الأخلاقيـات والاتجاهـات والممارسـات البشريـة،

والمجتمع البشري، ونظراً لما عاملهم به الله عزّ وجلّ، والعصيان والبغي اللذين تميَّزوا بهما عبر التاريخ، وحُرموا من أجله نصر الله وعونه - بأنه لا تنطبق عليهم كلمةُ انطباقَ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

أما من درس تاريخ المسيحيين فإنه يشهد بأنه لا تنطبق عليهم كلمةُ مثل انطباق ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ عليهم، فقد كان شأنهم شأن سالك للطريق، يترك الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته، ويأخذ طريقاً معاكساً يسلك به إلى الوراء، ولا يزال يواصل السير عليه فيزداد بُعداً على بُعد عن غايته المتوخّاة، وكما يقول الشاعر العربي:

شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

فقد امتحنت المسيحية في عهدها الباكر - يعني في منتصف القرن الأول المسيحي - بتحريف لا يوجد له نظير في تاريخ الديانات في عهدها الأول، فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية، وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (SAINT. PAUL) (١٠ - ٦٥ م). وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام، لا يشارك الثاني الأول إلّا في الاسم وبعض الطقوس. ويتحدث عنه عالِم مسيحي (ERNEST DE BUNSEN) فيقول: (إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل: ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله، إنّ مَرَدَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح، بل إلى دهاء بولس، ذلك المارق اليهودي والمسيحي، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (ESSENE) والتمثيل، وملئه هذه الصحف «بالنبوءات» والأمثلة. إن بولس في تقليده لاسطفانوس (STEPHEN) داعي المذهب الإنساني

قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية، إنه واضع ذلك المزيج، من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوى عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً. ليس المسيح، بل بولس والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان: هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً).



# تشريع الصوم وأسراره كما ذكرها القرآن

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

[سورة البقرة: الآيات ١٨٣ ـ ١٨٥]

هي آيات من سورة البقرة تدور حول فريضة الصيام، هذه هي الآيات الأولى التي عرف المسلمون بها وجوب الصيام في رمضان، والصوم شاقٌّ على النفس، لأنه حرمان من الطعام والشراب والشهوات في مدة محدودة، فما كان أجدرهم بأن يستثقلوا هـذا التشريـع وأن يستثقلوا هذه الآيات التي تنزل به!.

إن كل ما يأتي بمسؤولية ومتاعب، وكل ما يحول بين المرء وبين شهواته بغيض ثقيل، ولكنه ليس كذلك، فلماذا؟!.

ليست هذه الآيات ـ التي تضمنت وجوب الصوم ـ تشريعاً جافّاً مجرّداً كالقوانين والمراسيم العادية التي لا تعتمد إلا على الرابطة السياسية والاجتماعية التي تقوم بين الفرد والحكومة. إن هذه الآيات ـ بالعكس من ذلك ـ تخاطب الإيمان والعقيدة والعقل والضمير والقلب والعاطفة في وقت واحد، وتثير كل ذلك وتغذّي كل ذلك، وهكذا تهيّيء الجو لقبول هذا التشريع وإساغته، بل للترحيب به واستقباله بنشاط وحماس، إنها آية في الإعجاز، آية في فقه الدعوة، آية في علم النفس، آية في التشريع الحكيم: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

خاطب الله المكلفين بهذا التشريع بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهكذا هيّأ المخاطبين لقبول كل ما يُكلّفون به ويُطلب منهم، مهما كان شاقّاً وعسيراً، لأن صفة الإيمان هي تقتضي ذلك وتوجبه، فمن آمن بالله كإله وربّ وسيّد مطاع وصاحب الأمر والنهي، وخضع له بقلبه وقالبه، واستسلم له وأحبه من أعماق نفسه: كان جديراً بإجابة كل ما يصدر عنه من أمر، وكل ما يُوجّهه إليه من سؤال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[١]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[٢]، ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٣]، والشريعة كلها ـ بما فيها من فرائض وعبادات وأحكام ـ حياةٌ للنفوس.

ثم ذكر الله أنه كتب عليهم الصيام، ولكنه لم يكتب عليهم لأول مرة في تاريخ الأديان وليس هو بدعاً في التشريع، فقد كتبه على مَنْ

---

(١) سورة النور: الآية ٥١.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

سبقهم من أهل الكتاب وأهل الشرائع والأديان، وهكذا يخفف الله وطأة هذا التشريع على النفوس ويُهوِّن خطبه عليها، فالإنسان إذا عرف أنه لم يُكلَّف بشيء جديد، وإنما هو شيء سبق وتقدم وقامت به الطوائف والأمم: هان عليه الأمرُ وتشجَّع عليه. ثم ذكر أنه ليس امتحاناً فقط، ولا مشقة ليس وراءها قصد، إنه رياضة وتربية، وإصلاح وتزكية، ومدرسة خُلقية، يتخرج فيها الإنسان فاضلاً كاملاً، زمامه بيده يملك نفسه وشهواته، ولا تملكه، لقد استطاع الإضرابَ عن المباحات والطيّبات، فقوي على ترك الممنوعات والمحرمات، وترك الماء الزلال والحلال، والطعام الزكي الهنيء لأمر ربه، فكيف يقرب الحرام والرجس النجس من المطاعم والمشارب والمعايش؟ لذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ثم قال: لا تهولنَّكم عِدّة الشهر وتثقلنَّ عليكم، فإنما هي: ﴿أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ تُصام تِباعاً وتنقضي سِراعاً، وما نسبة هذا الشهر - الذي لا يصام إلا نهاره - إلى العام الكامل الذي ينقضي في لذة مباحة، ومتعة وراحة؟ ثم إنه يستثنى من هذا التكليف مريض، ومسافر، ومن يعجز عن الصوم، أو يُخاف عليه منه.

ثم ذكر فضل الشهر الذي شرع صومه، بأنه شهر نزل فيه القرآن، فكان بعثاً جديداً للجيل الإنساني، ومبدأ حياة جديدة للنوع البشري، فخليق بالمسلم أن يستمد من هذا الشهر المبارك وبصيامه وقيامه حياة جديدة، وإيماناً جديداً، وقوة جديدة.

هذا هو الصوم الإسلامي، أو الشحن الروحاني الذي هو زاخر بالحياة والمنافع والبركات، بعيد عن الإرهاق والإجهاد والمشقات التي لا تطيقها النفوس: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ،

وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

**خصائص التشريع الإسلامي في الصوم وفضله وأحكامه:**

وهكذا جاء التشريع الإسلامي للصوم أكمل تشريع وأوفاه بالمقصود، وأضمنه بالفائدة، وقد تجلّت فيه حكمة العزيز العليم الحكيم الخبير، الذي خلق الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

فخص شهراً كاملاً ـ وهو شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ـ بصيام أيام متتابعات متواليات، يُصام نهارها ويُفطر ليلها، وهو العُرف عند العرب في الصوم وهو الميزان في التشريع العالمي الإسلامي، يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي: «ويُضبط اليوم بطلوع الفجر إلى غروب الشمس، لأنه هو حساب العرب ومقدار يومهم، والمشهور عندهم في صوم عاشوراء، والشهرُ برؤية الهلال إلى رؤية الهلال، لأنه هو شهر العرب، وليس حسابهم على الشهور الشمسية»[3].

**لماذا خُصَّ رمضان بالصوم؟**

وجعل الله الصوم في رمضان، فجعل أحدهما مقروناً بالآخر، مرتبطاً به، فذلك قِران السعدين، والتقاء السعادتين في حكمة التشريع، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن، فكان مطلعَ الصبح الصادق في ليل الإنسانية الغاسق، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم، وكان أحق

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٨٥.

(٢) سورة الملك: الآية ١٤.

(٣) حجة الله البالغة ٢/ ٢٧.

شهور الله ـ بما خصّه الله من يُمن وسعادة وبركة ورحمة، وبما بينه وبين القلوب الإنسانية السليمة من صلة خفية روحية ـ بأن يُصام نهاره، ويُقام ليله[1].

وبين الصوم والقرآن صلة متينة عميقة، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من القرآن في رمضان، يقول ابن عباس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين يلقاه جبريل، أجود بالخير من الريح المرسلة»[2].

يقول العارف بالله، العالم الرباني الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) في بعض رسائله: (إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن، وبهذه المناسبة كان نزوله فيه، وكان هذا الشهر جامعاً لجميع الخيرات والبركات، وكل خير وبركة تصل إلى الناس في طول العام قطرة من هذا البحر. وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله، وتشتُّت البال فيه سبب للتشتُّت في بقية الأيام، وفي طول العام. فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك، ورضي عنه، وويل لمن سخط عليه فمُنع من البركات، وحُرم من الخيرات)[3].

---

(١) يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي: «إذا وجب تعيين ذلك الشهر، فلا أحق من شهر نزل فيه القرآن، وارتسخت فيه الملة المصطفوية، وهو مظنة ليلة القدر». (حجة الله البالغة ٢/٣٧).

(٢) حديث متفق عليه.

(٣) رسائل الإمام الرباني، الشيخ أحمد بن عبدالأحد السرهندي ١/٨.

ويقول في رسالة أخرى: (إذا وُفّق الإنسان للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر، حالفه التوفيق في طول السنة، وإذا مضى هذا الشهر في توزُّع بال وتشتُّت حـال، مضى العام كله في تشتُّت وتشويش)[1].

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إذا دخـل رمضان فُتحت أبـواب الجنة، وأُغلِقت أبواب جهنم، وسُلسِلت الشياطين»[2]. والأحاديث في الباب كثيرة.

**موسم عالمي، ومهرجان عام للعبادات والخيرات:**

وهكذا أصبح رمضان موسماً عالمياً، للعبادة والذكر والتـلاوة، والـورع والزهـادة، يلتقي على صعيده المسلمُ الشـرقي مـع المسلم الغـربي، والجاهـل مع العـالم، والفقيـر مـع الغني، والمُقصِّـر مـع المجاهد. ففي كل بلد رمضان، وفي كل قرية وبادية رمضان، وفي كل قصر وكوخ رمضان، فلا افتيات في الرأي، ولا فوضى في اختيار أيام الصوم، فكل ذي عينين، يستشعر جلاله وجماله، أينما حل ورحل في العـالم الإسلامي المتـرامي الأطراف. تغشى سحـابته النـورانيـة المجتمـع الإسـلامي كله، فيحجم المفـطر المتهـاون بـالصـوم عن الانشقاق عن جماعة المسلمين، فلا يأكل إلّا متوارياً أو خجِلاً، إلا إذا كان وقحاً مستهتراً من الملاحدة أو الماجنين، أو كـان من المرضى والمسـافرين، الـذين أذن الله لهـم في الإفطار. فهـو صوم اجتمـاعي عالمي، له جوٌّ خاص، يسهل فيه الصوم، وترقّ فيه القلوب، وتخشع

---

(١) أيضاً، رسالة: ٤٥.

(٢) البخاري في كتاب الصوم، باب: هل يقال رمضان أو شهر رمضان ٢/٦٧١.

فيه النفوس، وتميل فيه إلى أنواع العبادات والطاعات، والبرّ والمواساة.

**الجوّ العالمي، وما له من تأثير في النفوس والمجتمع:**

وقد لاحظ ذلك شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي، بنظره الدقيق العميق، فقال وهو يشرح حديث: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة...» إلخ: (الصوم إذا جعل رسماً مشهوراً، نفع عن غوائل الرسوم، وإذا التزمته أمة من الأمم، سلسلت شياطينها، وفتحت أبواب جنانها، وغلقت أبواب النيران عنها)(١).

ويقول في موضع آخر: (أيضاً فإن اجتماع طوائف عظيمة من المسلمين على شيء واحد، في زمان واحد، يرى بعضهم بعضاً: معونةٌ لهم على الفعل، ميسّر عليهم ومشجّع إياهم...، وأيضاً فإن اجتماعهم هذا أدعى لنزول البركات الملكية على خاصتهم وعامتهم، وأدنى أن ينعكس أنوار كلهم على مَن دونهم، وتحيط دعوتهم مَن وراءهم)(٢).

**الفضائل وما لها من تأثير وقوة:**

إن الحياة في صراع دائم بين الشهوات الحبيبة إلى النفس، والمنافع المقررة عند العقل، وليست الشهوات هي التي تنتصر دائماً في هذه المعركة، كما يعتقد بعض الناس، فذلك سوء ظن بالطبيعة البشرية، وإنكار للواقع.

إن القوة التي تدير عجلة الحياة بسرعة، وتفيض على هذا العالم الحياةَ والنشاط، هي الإيمان بالنفع. ذلك الإيمان هو الذي يوقظ

---

(١) حجة الله البالغة ١/٥٩.

(٢) المصدر نفسه ٢/٣٧.

الفلّاح في يوم شاتٍ شديد البرد، فيحرِّم عليه الدفء، ويبكر به إلى الحقل، وفي يوم صائف شديد الحر يهون عليه وهج الشمس ولفح السموم، ويفصل بين التاجر وأهله، ويتوجه به إلى متجره، ذلك الإيمان هو الذي يزيّن للجندي الموت في ساحة القتال، وفراق الأحبة والعيال، فلا يعدل به راحة ولا ثروة ولا نعيماً، إن كل ذلك إيمان بالمنافع وحرص على الخير، وهو القطب الذي تدور حوله الحياة.

وهنالك إيمان أعظم سلطاناً على النفوس، وأعمق أثراً من الإيمان الذي ضربنا له بعض الأمثال، ذلك الإيمان بمنافع أخبر بها الأنبياء والرسل، ونزل بها الوحي، ونطقت بها الصحف، وهي تنحصر في رضا الله وثوابه وجزائه في الدنيا والآخرة.

لقد علم الجميع، أن الإمساك عن الطعام في بعض الأيام مفيد للصحة، وخير للمرء أن يصوم مراراً في كل عام، وقد أسرف الناس في الأكل والشرب، وأُتخموا بأنواع من الطعام والشراب، فأصيبوا بأمراض جسدية وخُلقية، كل ذلك معروف ومشاهد، وآمن الناس بفوائد الصوم الطبيّة، وآمنوا بأنه ضرورة صحيّة، وآمنوا كذلك بفوائد الصوم الاقتصادية.

ولكن إذا سأل سائل عن عدد الصائمين في هذه السنة لفوائد طبيّة، ومصالح اقتصادية؟ وعن عدد الأيام التي صاموها طمعاً في الاعتدال في الصحة أو الاقتصاد في المعيشة؟ كان الجواب المقرر، أنه عدد ضئيل جداً، ضئيل حتى في الشتاء، مع أن الصوم فيه سهل هيّن، ورغم أن الصوم الطبيّ أو الاقتصادي أسهل بكثير من الصوم الشرعي.

ثم ننظر في عدد الصائمين الذين يصومون لأنهم يعتقـدون أن الصوم فريضة دينية، قد وعد الله عليه بثوابه ورضاه، وتكفّل بجزائه: فنرى أن هذا العدد ـ مهما طغت المادية وضعف الدافع الديني ـ عدد ضخم لا يقل عن ملايين، وأنّ هؤلاء الملايين من النفوس لا يمنعهم الحر الشديد في الأقاليم الحارة من أن يصوموا في النهار، ويقوموا في الليل، لأن الإيمان بالمنافع الدينية التي أخبر بها الأنبياء، عند أهل الإيمان، أقوى من الإيمان بالمنافع الطبية التي أخبر بها الأطباء، ومن الإيمان بالمنافع الاقتصادية التي لهج بها الاقتصاديون.

ذلـك لأن المؤمنين سمعوا في الصـوم ما هـوَّن عليهم متاعب الصوم، وشجَّعهم على احتمال الحر والجوع والعطش، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كل عمل ابن آدم يُضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمـائة ضعف، قال الله تعالى: إلاّ الصوم، فإنه لي، وأنا أجـزي به، يـدع شهوتـه وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطوره، وفرحة عند لقاء ربه، ولَخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١]. وروى سهل بن سعد، عن النبي ﷺ، قال: «في الجنة باب يُدعى الريّان، يُدعى له الصائمون، فمن كـان من الصائمين دخله، ومن دخله لم يـظمأ أبـداً»[٢]، وعن أبي هريـرة رضي الله عنه، رفعـه: «من صـام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

---

(١) رواه الستة.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.



# تشريع الحج والصوم، وبعض حكمهما وأحكامهما في ظلال القرآن

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾.

[سورة البقرة: الآية ١٩٧]

إن لله مواسم في زمنه وفي خلقه، هي فصول يحل فيها ربيع القلوب والأرواح وربيع الإيمان والأخلاق، وتهب فيها نسائم الرحمة ونفحات المحبة، لطيفة نظيفة، رقيقة رفيعة، قوية حيّة، مُنعِشة محبَّبة.

ومن أفضل هذه المواسم الربانية الروحانية والأعياد المعنوية الإيمانية: رمضان شهر الصوم، وأشهر الحج وخاصة ذو الحجة. وقد ذكرها الله في كتابه بعضاً إثر بعض، وأشاد بذكرها ونوّه بشأنها، وقد جمعت بينها جامعة، هي جامعة الطاعة، وجامعة المحبة، وجامعة فضل الزمان، أو فضل المكان. فلا صوم إذا لم تكن طاعة، ولا صوم إذا لم تكن محبة وإيثار رضا الله على رضا النفس، ولا حج إذا لم تكن طاعة وانقياد، ولم تكن محبة وإيثار. يهجر الإنسان طعامه وشرابه وشهواته ليصوم ويرضي ربه ويعصي نفسه. ويهجر الإنسان وطنه وسكنه وأهله وراحته ليحج ويرضي ربه ويعصي نفسه. والصوم في

رمضان أفضل الأزمان. والحج في مكة وحواليها في أفضل مكـان، وفي أفضل أزمان. فاقترن الصوم بالحج، وشابه الحج الصوم، ففي كليهما زهد وصبر وإيثار وهجرة، والصائم يسعى بين الإمساك والفطور ويطوف حول بيت ربه، والحاج يسعى بين الصفا والمروة، وبين مِنَى وعرفات، ويطوف حول بيت ربه، ولكلٍّ عيد، ولكلٍّ فدية، ولكلٍّ تهنئة.

وقد منع الله في الصوم عن الغيبة، وقول الزور، والخصام بصفة خاصة، وقبّح أمرها فقال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وقال النبي ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابّه أحد فليقل إني صائم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلاّ الجوع». وقد نهى الله في الحج عن الرفث والفسوق والجدال، فقال عزّ من قائل: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾.

وقد ظهر في هذه الآيات وفي هذه التوجيهات إعجاز التنـزيل وإعجاز التشريع، فإن الصـوم، لثقله على النفس وبُعد الصـائم عن مألوفاته وهجره لعاداته: مظنّةٌ لغيبة يشفي بها الإنسان نفسه أو يقتل بها وقتـه، والخوض في خصـام أو لجاج لحـدّة النفس والغضب لأدنى سبب، فنُهي عن ذلـك. وكذلـك الحاج مُعرَّضٌ لخطر الـرفَث وهو الفحشاء وقلة الحياء، والفسوق والجدال، لبعده عن الأهل، وطـول السفر وحصول المشقة والمرور بـأحوال مختلفـة، والاختلاط بـأناس ورفاق، لم يألفهم ولم يألفوه، فالحج مظنّة لكل ذلك فحذّرَ الله الحاج في سبيله القاصد لبيته عن كل ذلك، ولا يعلم ذلك إلاّ من أحـاط

علمه بكل شيء، وعرف طبيعة الإنسان ومواضع ضعفه وسقطته، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ، وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقد شمل الصوم والحج أنواعاً من الطاعات، وضروباً وأساليب من البرّ والعبادات، ليست معروضة ولا داخلة في صميم الصوم والحج، كالإنفاق والمواساة والرحمة والخدمة والبرّ، والصدقة والقيام وإحياء الليالي، والتسبيح والتلاوة، تُقوّي الصوم والحج وتُكثِر ثوابهما وفضلهما، فقال العليم الحكيم: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾.

وحثّ على التزوّد للقيام بالحج في عفة ونزاهة، والتزوّد للآخرة بالإكثار من الخيرات، وأنواع العبادات، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَتَزَوَّدُوا، فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَى، وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، وقد أمر الصائم بالتزوّد لصومه كذلك، وهو التسحّر الذي يقوّي على الصوم ويعين عليه، والحاج يأخذ الزاد والراحلة، وهنا اقترن الصوم بالحج كذلك، فكلاهما يجري في رهان واحد.



## إمكان الانبعاث الديني بعد خمول طويل واضطهاد كبير[1]

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾.

[سورة البقرة: الآية ٢٥٩]

إنَّ هذه الآية وإنْ أشارت إلى حادثة خاصة ظهرت فيها قدرة الله عزّ وجلّ، بأن أحيا ميتة بعد مائة عام غضّاً طرياً، وأبقى الطعام ـ الذي يفسد في الفضاء المفتوح بسرعة ـ مائة عام لم يفسد ولم يتعفن: فإنني أعتقد أن الآية الكريمة تنطوي على معنى لطيف آخر، وهو أن الله عزّ وجلّ قد يحيي دينه ورسالته بعد خمودها[2]، وانفصام صلة الشعب والبلاد بها، وفقدان الدفاع عنها وضعف الحميّة لها لمدة

(١) أُلقيت هذه الكلمة في اصطنبول على ساحل باسفورس الأسيوي، أمام مجموعة من الأتراك المُثقّفين والعرب الفضلاء في شهر يونيه سنة ١٩٨٦ م.

(٢) وقد ذكر لي بعض الأصدقاء الأتراك أن مدة محنة تركيا الإسلامية تكاد تكون مائة عام.

طويلة قد تبلغ مائة سنة، ويعيد إليها النضارة والطراوة. فإنه إذا كان قادراً على إبقاء الطعام طيباً شهياً لمائة عام لم يفسد ولم يأسن، فهو قادر ـ جَلَّ شأنه ـ على إبقاء دينه بعد مضي مائة عام أو أكثر عليه، في أوضاع متنكرة وظروف قاسية ـ حيناً ـ غضَّاً صحيحاً. وإنني أرى في هذه الآية الكريمة، بشرى سارة بأن الشعوب والبلاد التي رفعت لواء الإسلام وأرهبت الغرب المستعمِر قروناً من الزمن، ستعود إلى الازدهار والحياة والنشاط.

﴿تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ، وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٧.

# أهمية الإعلان بإكمال الدين ومقتضياته العقلية والمدنية

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾﴾.

[سورة المائدة: الآية ٣]

إن الله مَنَّ على المسلمين بالنعمة العظيمة الجليلة بإكمال هذا الدين وختم النبوّة والرسالة، فهو من أكبر النعم، والضمان الأكبر للحفاظ على الشريعة الإسلامية وصيانتها، ووحدة الأمة، واجتماع كلمتها. ولم ترزق أي أمة من الأمم هذه النعمة الجسيمة، ولم تخاطب بهذا الإعلان الكبير، وقد قال عالم يهودي ـ متحسّراً على عدم إدراك اليهود لهذه النعمة ـ لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً).

وقد تعرضت الملل والشرائع السماوية السابقة ـ لعدم وجود هذه النعمة ـ لمختلف الابتلاءات والمحن، وظهر فيها المتنبؤون في فترات مختلفة، وشغلت عقول علمائها ورجالها وصلاحياتهم وقواهم بالرد عليهم وتفنيد دعواهم، وقد صرح بذلك واعترف به كُتّابُ البحوث العلمية عن اليهودية والنصرانية في دائرة المعارف البريطانية والموسوعة اليهودية.

ثم إنه ينافي هذا الإعلان بهذه الثقة والمنة وإبداء الفضل والتكريم لهذه الأمة الأخيرة، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾، إنه ينافي روح هذا الإعلان وطبيعته ومتطلباته وتأثيره العقلي والنفسي: أن يرتد من بُشّر بهذا الإعلان، وأُكرم بهذا الفضل، وخُلع عليهم هذا اللباس في حجة الوداع، حين وقوفهم فيها بعرفات مع نبيهم مباشرة، ويختار طريق الكفر والردة وجحود النعمة، إن الله عزّ وجلّ الذي يعلم الغيب ويعلم المستقبل كما يعلم الماضي، لم يكن ليعلن هذا الإعلان ويبشّر بهذه النعمة لو كان الأمر كذلك.

وقد نصّ القرآن الكريم على كونهم ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجاً﴾[1]، ولكنه لم يذكر في أي موضع من كتابه: يخرجون من دين الله أفراداً، فضلاً عن أن يذكر فيه عن هذه النفوس المؤمنة الطيبة أنهم يخرجون من دين الله أفواجاً، مِن ذلك يُعلم أن قصة ارتداد الصحابة رضي الله عنهم جميعاً إلّا فلاناً وفلاناً، ليس إلّا قصة أملاها الشيطان، وسوّلتها النفوس المريضة.

إن قوله تعالى: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُم دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ يقتضي منا أيضاً أن نقف عند حدود الله تعالى، ونتمسك بشريعته في الأخلاق والاجتماع والمدنية والحضارة، فضلاً عن المعتقدات والعبادات، ونحصر أنفسنا في دائرة التعاليم الإسلامية والقيادة القرآنية، وخطوطها ومعالمها الواضحة، ولا يجوز لنا أن نحاكي الغرب اجتماعياً وحضارياً ومدنياً، وأن نكون ظلاً ملازماً له، فقد رزقنا الله تعالى مع الأسس والمعتقدات والمبادىء نظاماً كاملاً مستقلاً

(١) سورة النصر: الآية ٢.

للمعاملات، وحضارة متميزة فريدة، ومدنية صـالحة مستقيمـة، يجبُ أن نتمثّل بها تمثيلاً صادقاً، خصوصاً في هذا البلد الذي كان ولا يزال مركز الإسلام[1]، منه طلعت شمس الهداية، وانتشر الإسلام، وفيـه يستقرّ وإليه يعود.

---

(١) ألقيت الكلمة في مسجد منصور شُعيبي بجُدّة، وذلك في شهر صفر سنة ١٤٠٨ هـ (أكتوبر ١٩٨٧ م).



# الصِّلةُ المتينةُ الدَّائمةُ بَيْنَ الدِّينِ وَالمدنيَّةِ وَالمجتمعِ[1]

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴿٣﴾ ﴾.

[سورة المائدة: الآية ٣]

إن الدين إذا جُرّد عن المدنية ـ وقد جُرِّد كثيراً في التاريخ، وتكرَّرت هذه التجربة في فترات كثيرة ـ كان ديناً ولا حضارة، كان ديناً ولا اجتماع، كان ديناً ولا حياة، فهو كطائر مقصوص الجناح منتوف الريش، لا يستطيع أن يطير ويحلّق في الأجواء، إنه طائر يرفرف ويضطرب، فهو أشبه ببلبل في قفص من ذهب، وإن كان بلبلاً غرّيداً أو عندليباً ساجعاً مترنماً. أما الدين الحقيقي فهو الدين الذي يطير بجناحيه في أجواء من المعاني وفي أجواء من الأخلاق والمعاملات والسياسة والمدنية، وهو يسبك الحياة سبكاً مطابقاً لعقيدته ولما يدين به. ظهر الإسلام فأنتج حضارة كاملة بحذافيرها، حضارة زاهية زاهرة، حضارة حكيمة عادلة، حضارة مؤسسة على توحيد الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وعلى ذكر الله تعالى، واستحضار قدرته، واستحضار الآخرة والإيمان بأن الآخرة خير من الأولى، مؤسسة على العدل الاجتماعي، وعلى الاحترام للإنسانية والرحمة بها، وعلى الجمع بين

---

(١) كلمة ألقيت في الخليج العربي في إحدى المناسبات.

الـواجبـات والحقـوق في وقت واحـد، والأخـذ والعـطاء، والإفـادة والاستفادة في حين واحد، وعلى الاعتـراف بقيمة الإنسـان أيّاً كـان وأينما كان.

الحضـارة قامت على أسـاس العقيـدة، وعلى أسـاس التـربيـة الإلٰهية، والنصوص القرآنية السماوية، وعلى أسـاس السيرة النبـويّة، وأسوة الصحابة رضي الله عنهم، فكان أزهى حضارة وأفضل حضارة جرّبها الإنسـان. ظهرت هـذه الحضارة في الحجـاز أولاً في مدينـة الرسول، وفي مَهْجَره صلى الله عليه وآله وسلم، ثم خرجت من حدود المدينة وغزت العالم كله، وما دخلت في بلد من البلاد إلّا وخضع لها أهله طواعية لا كراهية، وتغلغلت في أحشاء البلاد أو المجتمع الذي فتحته. وتعلمون أن أمـة إذا فتحت عنوة بحـدّ السيف فإنهـا تُبغض الفـاتحين، هذه تجـربة التـاريخ المتصلة المتكـررة، ولكن الحضارة الإسلامية وقعت من قلوب المواطنين موقـع الحبيب، وقبلتها البـلاد وضمتها إلى صدرها، لأنها كانت حضارة طبيعية عادلة عاقلة، مؤسسة على مبدأ المساواة الإنسانية، ومبدأ الرحمة بها، وإخراج الناس من حكم العباد إلى حكم الله تبارك وتعالى، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام.

فكـل دين يجرَّد من الحضـارة: دين صـائـر إلى الانقـراض، ومصيره الزوال السريع. وكل دين يرضى أهله بهذا الموقف الضعيف المتخاذل، فيرضون من الدين بالعقيدة ولا يلحّون على مدنية خاصة هي نتاج هذا الدين، ويقتبسون أو يستوردون مدنية أخرى هي وليدة بيئة أخرى، وسليلة ديانة أخرى، ونتيجة أحداث وعوامل مرت بها أمة خاصة، أو بلد خـاص: فإنهم يفقـدون مع الأيـام ومع تيـار الزمـان

شخصيتهم، ويفقد الدّين الذي دانوا به السيطرة على نفوسهم وعقولهم، ويكونون صورة صادقة أو نسخة مطبوعة أمينة للأمة التي تطفلوا على مائدتها، واقتبسوا منها الحضارة ونمط الحياة، وهذا ما نتخوّفه اليوم على العالم الإسلامي الذي يقتبس من الغرب مدنيته وأساليب حياته.



# مكانة الكعبة المشرّفة الدينيّة والعالميّة المبدئيّة ومسؤوليّة المرتبطين بها في أرجاء العالم(١)

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ .. ﴿٩٧﴾ ﴾
[سورة المائدة: الآية ٩٧]

إن نظام العالم مرتبط في باطن أمره ببيت الله الحرام، كما أن نظام العقائد والأعمال والأخلاق مرتبط بالدعوة التي أُسس لها هذا البيت. أعترف بقصور باعي في ترجمة ﴿قِيَاماً لِلَّناسِ﴾، وإن الترجمات للقرآن الكريم التي اطّلعتُ عليها وقرأتها: أعتقد أنها لم تستطع كذلك إعطاء هذه الكلمة حقها، إلّا أنني أحاول أن أذكر مغزى الكلمة ومفهومها: وهو أن الله تعالى جعل الكعبة المشرفة عماد حياة الناس وعماد هذا العالم البشري، فليس نظام هذا العالم مرتبطاً بالحكومات ولا بالمنظمات ولا بالقوة العسكرية والفلسفات الخلقية والحضارية، ولا المراكز العلمية. إنه مرتبط بما لا تصل إليه الأفهام، ولا تدركه الأبصار، ببيت الله الحرام وبالدعوة التي أقيم لها هذا البيت، وإنها عبارة عن العقيدة الصحيحة الراسخة، والسيرة الطيبة

(١) كلمة ألقيت بمناسبة الترحيب بسماحة الشيخ محمد بن عبدالله السبيّل، إمام الحرم المكي، ومعالي الدكتور عبدالله عمر نصيف، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، وذلك في ساحة ندوة العلماء بلكهنؤ ـ الهند، أمام جمع حاشد من أهل البلد من كل طبقة.

الصالحة، والأخلاق النبيلة الفاضلة، والأواصر البشرية الخالصة، والأخوة الصادقة، والمحبة المتغلغلة في النفوس، واحترام الإنسانية، واعتقاد أن الله حاضر ناظر سميع بصير... إلخ، وأن مركز هذا الكون ومحوره هو تلك الدعوة، وتلك الأهداف والتربية التي كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام داعيها الأول، ومجددها وخاتمها ومكملها هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان ولا يزال بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف يمثلانها ويحتضنانها.

إن هذه الآية الكريمة تفرض علينا نحن المسلمين مسؤولية كبيرة، فإننا نمثل في كل بلد وقطر بيت الله الحرام، فلو هلكت هذه البلاد لأَثَرَتها وجشعها وحرصها على الثروة والأموال، وقتل الناس الأبرياء والتعذيب والإيذاء وحوادث الاضطراب الطائفية والأنانية، وخواء الضمير، وهدر كرامة الإنسانية، لو وقع ذلك: فإننا نحن المسؤولون أمام الله، سوف يمسك بتلابيبنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإننا أمة نبي وُصف بأنه رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2].

فلا يجوز أن تُدمَّر بلاد مع وجود أمة نبي الرحمة التي تحمل تعاليمه وشريعته، والتي هي صنيع تربيته وتعليمه، فإن من مسؤوليتها أن تحافظ عليها وعلى المثل العليا فيها، وتحميها من الانتحار الجماعي والدمار الخُلقي، والفوضى النفسية.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧. (٢) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

# بين قامة هذه الأمة وقيمتها

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[سورة الأنفال: الآية ٧٣]

ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة، إنما العبرة بالقيمة، هناك شيئان يوزنان: القامة والقيمة، ولكن الله سبحانه وتعالى فَضَّلَ القيمة على القامة. إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال عجبت وعجبت، وكدت أحار وأُغلَبُ على أمري، إذا قرأت قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، إلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

لمن يقال هذا؟ لهذه الحَفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار، تألفت من الأنصار أصحاب الدار، ومن المهاجرين المغتربين الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة وألف. لقد حثَّ الله على المؤاخاة الإسلامية وربط المهاجرين بالأنصار والأنصار بالمهاجرين، وأثار فيهم روح الأخوة الصادقة وحثهم على أن يكونوا وحدة جديدة، وحدة تقوم على الإيمان وعلى الكلمة وعلى الترحُّم للإنسانية، تقوم على المبدأ والعقيدة، فقال لهم: إذا قصَّرتم في إنشاء هذه الأخوَّة وفي تكوين هذه الوحدة التي جهلها العالم وتناساها التاريخ، وبكلمة

أصحَّ: نسيها التاريخ منذ مئات السنين، إذا قصرتم في إنشاء هـذه الـوحدة التي تقـوم على الرسـالة الفـاضلة، وعلى الأخوّة الصـادقـة المخلصة: فإنها تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

ما نسبة هـذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثـربَ ـ التي سُمّيت بعد ذلك بمدينة الرسول ﷺ ـ؟ مـا وزن هذه القلة ومـا عدد أفرادها؟ وما وزن هذه القلّة في الميزان السياسي وفي الميزان الدولي وفي الميزان الاجتماعي وحتى في الميزان العلمي؟ إنهم ـ كما أعتقد ـ لم يبلغ عددهم ألفين. وقد أُجرِيَ إحصاؤهم ثلاث مرات كما ورد في صحيح البخاري، وكان عددهم في آخر إحصاء بلغ: خمسَمائة وألف نسمة، فلمن يقال هذا؟

هل يقال للرومان الذين سيـطروا على نصف الأرض، والذين كانوا يتمتعون بأكبر إمبراطورية، وأكبر حضارة قامت في ظلّها، وبأكبر قوة حربية وقوة دولية وقوة سياسية؟

هل يقال هذا للفرس الإيرانيين الذين كانوا توزعوا الرومان في بسط نفوذهم بالاستيلاء على الأرض المعمورة؟

كان هؤلاء الرومان والفرس هم المؤثّرين في مسيرة الإنسانية، وهم الذين كانوا يُسيِّرون سفينة الحياة وسفينة الحضارة، وهم الذين كانوا يتصرفون في وسائل الأمـم ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ وفي أوضاع العـالم، هل يقـال لهم: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَـادٌ كَبِيرٌ﴾.

قيسوا أولاً روعة الكلمة وحَجمها: ﴿فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ما أكبر

حجمها وما أثقل وزنها!! ولم يقل: ﴿فَسَادٌ﴾ فحسب، بل: ﴿فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

هذه قيمة الأمة المسلمة حين كانت في عدد المئات، في عدد ألف أو ألفين، هذا هو التصوير الصادق، وإعطاء هذه المجموعة هذا الوزن الكبير، وهذه القيمة الكبيرة، وهذه المكانة الرئيسة في خريطة العالم ومجموع الأمم.

فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته، وأن الأمة المسلمة برسالتها وإيمانها وعقيدتها وفضلها الخُلقي وضميرها الحيّ، وبالروح المتغلغلة في الأحشاء، المسيطرة على الشعور وعلى العقل والتفكير.

قيمة هذه الأمة في هذه الخصائص التي أكرمها الله بها، ليست بكثرة العَدَد والعُدَدَ، ولا بكثرة المساحة المكانية التي تسيطر عليها وتحكم فيها، ولا بالفخامة وبحجم المساحة الزمانية التي تؤثر فيها.



# محنة عظيمة وتوبة كريمة

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

[سورة التوبة: الآيتان ١١٧ ـ ١١٨]

كانت غزوة تبوك التي غزاها رسول الله ﷺ في سنة تسع من الهجرة غزوة شديدة؛ غزاها رسول الله ﷺ كما يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: «في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً، وعدوّاً كثيراً قوياً»، يعني المملكة الرومية العظيمة التي كانت تحكم نصف الأرض المعمورة تقريباً، وكان ذلك في عسرة في الناس وجدب في البلاد، ولذلك سُمّيت غزوة العسرة، وقد طابت الثمار والظلال في المدينة وقويت الرغبة في البقاء في الوطن والأهل، وانصرفت الطباع وزهدت النفوس في الخروج والغزو، وقد اجتمعت الأسباب المثبِّطة العائقة، وحلا البقاء في المدينة، وشقَّ الخروج والمجازفة بالحياة، أمام عدو قد دمر الإمبراطورية الفارسية، وهزمها هزيمة منكرة بالأمس القريب.

ولكن كان من معجزات التربية النبوية، ومن معجزات الإيمان والعقيدة أنْ لم يتخلَّف عن هذه الغـزوة الشاقّـة العسيرة، إلّا ثـلاثة أشخاص من المؤمنين، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ولا ديـوان، فما من رجـل يريـد أن يتغيَّب إلّا ظن أنه سيخفى عليــه مـا لم ينــزل فيه وحي الله، فليس عليهم رقيب إلّا الإيمـان، وليس لهم حسيب إلّا ضميـرهم وعقيـدتهم، ولم يتخلّف هؤلاء الثلاثة إلّا بطبيعة التسويف أو الكسل الذي قد يعتري الرجـل النشيط. وقد كان فيما لقُوا من تأنيب الضمير ولائمة النفس، والشعور بالغُربَة، والتخلّف عن الرفاق، وعن الإنسان الذي آثروه على نفوسهم وأولادهم ومُهَجهم وأرواحهم: لقد كان في كل ذلك عقاب شديد.

وقد ذكر ذلك أحد الثلاثة وهو كعب بن مالك، في بلاغته العربية وبيـانه المُشـرِق، فقال: (فكنت إذا خـرجتُ في الناس بعـد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم: أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر اللّهُ من الضعفاء).

ولمـا رجع رسـول الله ﷺ سألهم عن سبب التخلف فصـدَقـوا واعترفوا. وكان لا بد من تأديب، وكان لا بد من درس، وكان لا بد من امتحان الإخلاص والولاء، والحُبّ والوفاء. وكان ذلك، فقد نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامهم من بين مَن تخلّف عنهم.

فماذا كان بعـد ذلك؟ ظهـرت معجزة مثبتـة للإيمـان والتربيـة وسلطان العقيدة. كانوا أبناء المـدينة، عـاشوا فيهـا ولهم فيها إخـوة وأقارب، وأهل وولد، وأصدقاء وأحباب، ولكن خضع المجتمع كله لكلمة تصدر من شفة رسول الله ﷺ، فلا عاصي، ولا ثـائر. ونـدع القول لكعب بن مالك الراوي، الأديب البليغ: (فاجتنبَنا الناس وتغيروا

لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف)، حتى قد أتى ابنَ عم له وأحب الناس إليـه، فسلّم عليه، فلم يـرد السلام، فنشده بالله: هل تعلمني أُحب الله ورسوله؟ فيجيب بعد ما نشده ثلاث مرات: الله ورسوله أعلم، فتفيض عينا كعب بن مالك.

ويأمره رسول الله ﷺ بأن يعتزل امرأته، فيفعل ويُلحِقها بأهلها، ويخطب وُدَّه ملكُ غسان الكبير، ويدعوه ليواسيه ويكرمه، وكان أشد محنـة امتحن بها مُحِبّ: يجفـو الحبيبُ القريب، وينبـذه المجتمـع وتقصيه البيئة، وفي هذه الضائقة والجفوة يطالبه ملك ويرسل إليه كتاباً بأخبار بِرّه ورِفْده وعطاياه الـواسعة، فيـرفض ذلك في إبـاء وكراهيـة وتحقير، إنها معجزة ثالثة للإيمان والتربية وسلطان العقيدة.

ولما تم كلُّ ذلك، وبلغ الضيقُ غايتَه، والمحنةُ أشُدَّها، ولا أبلغ من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ. . .﴾ إلخ: تاب الله على هؤلاء المخلَّفين المؤمنين الصادقين، الذين ظهرت قوة إيمانهم في هذه المحنة أشد مما تظهر في معركة حربية أو غزوة عملية، وثبتوا في هذا الجفاء والإقصاء أشد مما يثبت البطل على حرّ السيوف والأسنّة.

تاب الله عليهم توبة كريمة، شرَّفَ فيها قدْرهم، وغسـل عنهم عارهم، وخلَّدَ ذكرهم، وبيّض وجـوههم. وبدأ بـالنبي والمهاجـرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، وهكذا ألحقهم بأصحـابهم الذين سبقوهم ووضعوهم في هذا المكان المُشرِّف الكريم. وما بدأ بذكر النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخـر، ولا بذكـر الذين ساهموا في هذه الغزوة: إلا لإعادة الثقة إلى نفوس هؤلاء الثلاثة وردّ اعتبارهم ومكانتهم في المجتمع، ولإزالة ما يسمّيه علماء النفس

اليوم بـ «مُركَّب النقص»، وهي مصلحة عظيمة من مصالـح التوبـة، ولذلك جاء في الحديث الشريف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وأن التائب يصبح كيوم ولدته أمه.

وليست هنالك طريق أو أسلوب أقوى وأعمقَ تأثيراً من الأسلوب الذي اختاره القرآن، وهو أنه قدَّمَ ذكر السابقين الراسخين الذين سبقت لهم الحسنى ولم يسقطوا هـذه السقـطة، يُشرِّفهم ويتقـدم عليهم رسـول الله ﷺ، وبـدأه بقـولـه: ﴿لَقَـدْ تَـابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ. . .﴾ إلـخ، ليعرف النـاس أن التوبـة مَكْرُمـة وفضيلة، ويحتـاج إليها الأنبيـاء والمـرسلون والسـابقـون الأولـون، والمؤمنـون الراسخون، والمجاهدون المغامرون، لئـلا يشعر هؤلاء الثـلاثة أنهم مُنحَطُّون في القدْر نازلون في الشرف، ولئلا يلصق بهم هذا العار، ولئلا يشعر المجتمع الإسلامي أنهم غرباء متميزون، وشامة في الناس يُشار إليهم بالبنان، فقال:

﴿لَقَدْ تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُـوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَـزِيغُ قُلُوبُ فَـرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُـوا، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، ثُمَّ تَـابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُـوا، إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّـوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

## نموذج رائع من الإيمان النبوي والحنان الأبوي

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ۖ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾.

[سورة إبراهيم: الآيات ٣٥ - ٤١].

إن دعاء والد لولده، أو جدّ ومؤسِّس أسرة وسيّد عشيرة، لذريته وفصيلته: شيء طبيعي جرت عليه العادة واقتضته الطبيعة البشرية، فإن حنان الأُبوَّة، والحرص على سعادة الأولاد من غريزة الآباء والأجداد وشيوخ القبائل.

وقد سجل التاريخ ودواوين الأدب العربي بصفة خاصة، أدعية ووصايا كثيرة من الآباء للأبناء، ومن الشيوخ المُحنَّكين للنشء الجديد والأجيال القادمة، تجلت فيها نفسية الشيوخ وثقافتهم، ونفسية ذلك

العصر الذي عاشوا فيه وثقافته كذلك، وهي مرآة صادقة وحكاية أمينة مصوِّرة لما كان يعيش في ذلك العصر من الخواطر والأفكار، ولما كان في تلك البيئة من المُثُلِ العليا والغايات المطلوبة.

ولكن دعاء إبراهيم الخليل أسلوب من الدعاء، لا نظير له في التاريخ، ولا مثيل له في دواوين الأدب، كما أن إبراهيم طراز خاص من البشر وأمة وحده، والدعاء قطعة من النفس، وصورة للنفسية والعقيدة.

إنه دعاء تجلَّى فيه إيمان إبراهيم وحنان إبراهيم، وعلم إبراهيم ودعوة إبراهيم، فمن أراد أن يعرف مكانة إبراهيم ويتمثَّل نفسيته فلينظر إلى هذا الدعاء الذي صدر من أعماق النفس ومن أعماق القلب، فدلَّ على النفس ودلَّ على قلب، وكان إبراهيم دائماً يتكلم عن عقيدة ويُعبِّر عن قلب، ذلك القلب السليم الذي خصَّه الله به، فكيف في هذا الدعاء الذي كان يناجي به ربه؟!

إن أول ما طلبه إبراهيم من ربه لأولاده وذريته هو أن يجنبه وإيّاهم من عبادة الأصنام، وكان ذلك أكبرَ همّ إبراهيم الذي شغل خاطره، واستولى على مشاعره. فقد رأى - وهو بعيد النظر، واسع التجربة، نافذ البصيرة، سائح في الأرض - مصيرَ الأجيال البشرية، والأديان السماوية، كيف أصبحت فريسة الوثنية، وعبادة الأصنام، وكيف ضاعت أمانة التوحيد في غابة العقائد والفلسفات، وكيف شُغِلَ الإنسان بعبادة الأصنام والتماثيل، والتوجه إليها والتوصل بها، عن عبادة الله وحده، فلم يُوفَّق لها ولم يُكرَم بها في أجيال كثيرة وآجال طويلة. وكانت النتيجة أن اتجهت عاطفة العبادة وغريزة الدعاء والالتجاء والتضرع إلى المخلوقات والمحسوسات، فهل يناقَش إبراهيم

عليه الصلاة والسلام في ضوء التجارب وواقع الحياة في قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟ وهل يُشَكُّ في صدقه وفراسته؟.

ثم إنه يخبر بأنه أسكن ذريته بواد غير ذي زرع، بجوار البيت المحرم، بعيداً عن مراكز المدنية والخصوبة والتجارة وعن العواصم الكبيرة، على خلاف عادة الآباء ومؤسّسي العشائر والقبائل، وآثر بطن الجزيرة وبطحاء مكة ليعلموا أن المطلوب منهم غير التجارة، وغير الزراعة، وغير الثراء والرخاء، المطلوب منهم القيام بدعوة إبراهيم والمحافظة على عقيدة إبراهيم، ولئلا يذهلوا عن عبادة رب هذا البيت الذي بناه وشيده ﴿ٱلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾.

وهنالك ثار الحنان الأبوي في جوار الإيمان النبوي، وإبراهيم الخليل مثال رائع بين إيمان الأنبياء وحنان الآباء، فلم ينس الشفاعة لأولاده الذين هم قطعة من نفسه وجسمه، فلاحظ - وهو قوي الملاحظة - أن الوادي الذي آثره لأولاده لا زرع فيه ولا ضرع، وليس فيه شيء يستهوي القلوب، ويجلب الناس، ويجلب الرزق والبضائع، وهم أمناء الدعوة وورثة الدين، فكيف يقومون بفريضتهم؟ وكيف يُؤْثِرون هذا المكان المنعزل بالإقامة والبقاء؟ فقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

ولم يَشْغَله هذا الدعاء المخلص والمناجاة الخاشعة، عن أن يحمد الله على نعمة الأولاد والذرية التي وُهِبت له على الكِبَر، وإنما المسكن بالساكن، والمنزل بالعامر، والشيء بالشيء يُذكَر، وكان كل ذلك نتيجة الدعاء والابتهال. وهو يرجو إجابة هذا الدعاء، كما تحقَّقَ إجابة الدعاء القديم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ﴾. وطلب من الله أن يوفقه وذريته لإقـامة الصـلاة، وأن يجعله وأعقابـه مرتبـطين بوجهـه الكريم وبيتـه القديم، ولم ينس حين دعا لذريته أن يدعوَ لأبيه وللمؤمنين جميعاً، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام آية في الوفاء، سخيٌّ جواد في الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

كـان العالم في عصـر إبراهيم عليـه الصلاة والسـلام خاضعـاً للأسباب، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثِّرة مستقلة قائمة بذاتها، وحتى أصبحت أربـاباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها، وثنيَّة أخرى غير الوثنيّة التي أُغرقوا فيها وغلوا من عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورة على الوثنيّين، ودعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء، وأنه يخلق الأشياء من عدم، وأنه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينتزع عن الأشياء خواصها، وطبيعتهـا، ويستخرج منهـا أضدادهـا، ويسخرها لما يشاء ومتى يشـاء. أشعل النـاس له النيـران، وقالـوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1]، وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعة دائمة لا تنفكّ عنها إنما هي طبيعة مودَعـة وأمانـة فيها، إذا أراد أطلق لهـا العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوّلها إلى برد وسلام، فخاضَهـا مؤمناً مـطمئناً واثقاً، وهكذا كان: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُـونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلأَخْسَرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان ٦٩ - ٧٠.

واعتقد الناس أنه لا حياة إلّا بالخِصب والمِيرة والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصِبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب، وتسهل فيها التجارة والصناعة، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع، والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرخاء والثراء، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق، ويعطف إليهم القلوب ويَجْبِي إليهم الثمرات من غير سبب وطريق معروف، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلاةَ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(١).

وأجاب الله دعاءه، فضمن لهم الرزق والأمن، وجعل بلدهم محطّاً للخيرات والثمرات: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(٣).

تركهم في أرض لا أثر فيها لما يُروِي الغلة ويبلُّ الحلقوم، فإذا بماء يفور من الرمال، ويفيض من غير انقطاع، فيشربه الناس في سخاء ويحملونه إلى بلدهم. ويترك أهله في بلد قفر لا أنيس فيه، فإذا به يصبح مكاناً يؤمّه الناس من كل صوب، ويأتون إليه من كل فجّ عميق.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧. (٢) سورة القصص: الآية ٥٧.

(٣) سورة قريش: الآيتان ٣ ـ ٤.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للمادية المسرفة الشائعة في عصره، وعبادة الأسباب واتخاذها أرباباً من دون الله، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة، وأن إرادته فوق كل شيء، وهكذا كانت سنّة الله معه، يُخضِع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

# قيام الليل، وعناية كبار الأئمة به

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾.

[سورة بني إسرائيل: الآية ٧٩]

إنَّ أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطارية) القلب: قيام الليل، الذي أكثر القرآن من الحثّ عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه حتى كأنه ملحق بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمّي نافلة.

وكان رسول الله ﷺ لا يتركه في حضر وسفر[١]، ويذهب كثير من علماء الإسلام، أنه كان فرضاً عليه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[٢] ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[٣]. ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) قال العلاّمة ابن القيم: (لم يكن ﷺ يدع قيام الليل حضراً وسفراً، وكان إذا غلبه نوم أو وجع، صلى من النهار اثنَتيْ عشرة ركعة). زاد المعاد ٨٤/١.

(٢) سورة المزمل: الآيات ١ ـ ٩. (٣) سورة بني إسرائيل: الآية ٧٩.

وسلم شديد المحافظة عليه، عظيم الحرص والرغبة فيه، وكان يقوم حتى تتورم رجلاه، يقول المغيرة بن شعبة: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1]، وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بآية من القرآن ليلة.

ويعرف المتتبّع لأخبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم، والذي يطالع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام الليل كان فاشياً منتشراً فيهم حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وُصفوا أمام (هِرَقْل) وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان. ويصفهم سيد التابعين ومن أعرف الناس بالصحابة، الإمام الحسن البصري فيقول: (إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها وأفضى يقينها إلى قلوبهم، خشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم، كنت والله إذا رأيتهم رأيت قوماً كأنهم رأي عين، ما كانوا بأهل جدل ولا باطل، ولكنهم جاءهم أمر عن الله فصدقوا به، فنَعَتَهم الله في القرآن أحسن نعت، قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً﴾[2]، إلى أن يقول: ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال: ﴿وَٱلَّذِيْنَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾[3] ينتصبون لله على أقدامهم، ويفترشون وجوههم سُجَّداً لربهم، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقاً من ربهم، قال الحسن: (لأمرٍ ما سهروا ليلهم ولأمر ما خشعوا نهارهم).

وقد كان شعاراً للصالحين والربانيين، والدعاة والمجاهدين

---

(١) رواه البخاري والمسلم والترمذي والنسائي.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٣) سورة الفرقان: الآية ٦٤.

والمربين المصلحين في كل عصر وفي كل طبقة، وقد كانوا يأخذون لكفاحهم بالنهار ولأشغالهم التي تتطلب قوة خارقة للعادة، وصبراً لا نفاد له: زاداً ووقوداً من عبادتهم في الليل ومن يقظتهم في الأسحار.

ولا يفهم الإنسان سرّ قوة هؤلاء العلماء الربّانيين، والدُّعاة المصلحين ومثابرتهم على الجهاد في التعليم والإصلاح، وتحمُّلهم للمشاقّ والمِحَن، إلّا إذا رأى مواقفهم بالليل وشأنهم مع ربهم تبارك وتعالى. حتى كان أولئك العلماء الذين قد يعتقد من لا يعرف حقيقتهم، أنهم كانوا من علماء الظاهر، ويتهمهم بالجفاف والخشونة: من كبار المهتمين بقيام الليل والذكر والتسبيح، فما ظن القارىء الكريم، بالذين اشتهروا بكثرة العبادة وشدة الزهد، ورِقَّة القلب والانقطاع إلى تربية النفوس، أمثال الشيخ عبدالقادر الجيلاني، والشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدي، والشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهَنْدي، والسيد أحمد بن عرفان الشهيد الهندي.

يقول العلّامة ابن القيم عن شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيمية: (صلى شيخ الإسلام مرة صلاة الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ، وقال: هذه غدوتي، ولم أتغدّ، ولو لم أتغدّ الغداء سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا)[1].

وكذلك كان شأن تلميذه ابن قيم الجوزية، فيقول المؤرخ ابن كثير، وهو يصفه: (لا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه، وكانت له طريقة في الصلاة، يطيلها جداً، ويمدّ ركوعها وسجودها، يلومه

---

(١) مجموعة الوابل الصيب لابن القيم، ص ٧١٩ - ٧٢٠ (مطبعة المنار).

كثير من أصحابه في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينـزع عن ذلك)[1].

ويقـول العلاّمـة ابن رجب الحنبلي: (وكان ذا عبـادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألُّه ولَهَج بذكر الله، شُغِف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله تعالى، والانكسار له والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك)[2].

وأغرب من ذلك كله أَمْرُ العلاّمة الحافظ عبدالرحمٰن بن الجوزي الذي هو زعيم النقاد، وحامل لواء الردّ على غلاة الزُهّاد والعُبّاد، يقول سبطه أبو المظفر: (وكان يختم القرآن في كل سبعة أيام)، وقال ابن النجار: (له حظ من الأذواق الصحيحـة، ونصيب من شرب حـلاوة المناجاة)، وقد ذكر ابن القادسي: (أنه كان يقوم الليل ولا يكاد يفتر عن ذكر الله)[3].

وهكـذا كـان أئمـة المسلمين وقـادتهم، وزعمـاء الإصـلاح والتجديد، ورجال التعليم والتربية، ومن نفع الله المسلمين بنفـوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم الانتشار الواسع والبقاء الـطويل، والقبـول العظيم والـذكر الجميـل: من أصحاب العبـادة والسهـر في الليالي، والقيام في الأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بـالله تعالى. وهكذا كان وسيظلّ: فلا تنشأ يقظة عن غفلة ولا نهضـة عن جمود وخمود، ولا حياة من موت، ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور.

﴿سُنَّـةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّـذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْـلُ وَلَنْ تَجِـدَ لِسُنَّـةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[4].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٣٣٥.

(٢) التاج المكلل، ص ٤١٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦٢.

## مراحل الإيمان والهداية، والدعوة والثبات

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ ﴾.

[سورة الكهف: الآيتان ١٣ - ١٤].

إن خطوة هؤلاء الفتية المؤمنين الجريئة البطولية التي خَطَوْها ضد الديانة الشركية السائدة، والسلطة القوية القائمة، التي كان أكثر كبارهم وأقربائهم موظفين فيها متطفلين عليها: لهي حقّاً محلُّ إكبار وإجلال.

إن هذه الآية الكريمة تناولت مراحل اعتناقهم للحق وإيمانهم واهتدائهم واستقامتهم وثباتهم عليه بترتيب لطيف خاص، وهو الترتيب الصحيح لمراحل الإيمان والدعوة المتسلسلة المترابطة. وقد صرحت الآية الكريمة بأنهم جرؤوا أولاً على نبذ دينهم السابق واعتناقهم الحق، وقبول الدعوة الدينية: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ثم زادهم الله هدى وثباتاً، ثم لما دخلوا مرحلة الابتلاء والمحنة ربط الله على قلوبهم وهذه هي المراحل الطبيعية الشرعية التي يأتي معها نصر الله تعالى وتأييده.

إنه ينبغي أن يلاحظ أن الله تعالى استعمل هنا جمع القلة، فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ وذلك لأن المستميتين للدين الذين يُغْفِلون جوانب رقيهم المادي ورغد العيش والراحة، لا يكونون إلاّ قِلَّةٌ في كل عصر.

ثم لفت أنظارهم إلى أن الله تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع صفة الربوبية، فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، وقال: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وذلك لأن الناس كانوا يتصورون انحصار رقيهم وازدهارهم وكفالة حاجاتهم وقضاء متطلباتهم في الوفاء للحكومة والوظائف والمناصب، ولم يكونوا يتصورون الراحة والطمأنينة والعيش الهنيء بدون ذلك، فإنهم لقولهم: ليس لنا رب وكافل إلّا الله رب السموات والأرض، لا حكومة تُربّينا ولا مخلوق يرزقنا: ضربوا على تلك العقيدة الجاهلية الفاسدة والتصور الجاهلي الذي يشرك مع الله آلهة وأرباباً أخرى، وأعلنوا أن رزقهم ونفعهم وضررهم راجع إلى الله وحده، وقد أحيَوا بذلك مثال سيدنا صالح عليه الصلاة والسلام، وقد يكون وقع في أمرهم من ردة الفعل لإعلانهم ما وقع لأسرة صالح حيث قالوا له: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذا. . .﴾[1].

إن كل آية في القرآن الكريم معجزة برأسها، ولكن هذه الآية لاشتمالها على بيان ترتيب عجيب دقيق لمراحل الإيمان والدعوة والثبات والاستقامة، وإعلان الحق، والصبر عليه: معجزة خاصة وترتيب رباني لطيف.

---

(١) سورة هود: الآية ٦٢.

## الله نور السماوات والأرض

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾ ﴾.

[سورة النور: الآيات ٣٥ ـ ٣٨]

إن الآيات الجميلة الرائعة التي قرأتموها، تُحدِّثنا عن هذا الكون الذي نعيش فيه ونهيم به حباً وغراماً، في أسلوب جديد، أسلوب الوحي الإلهي، أسلوب الأنبياء المرسَلين، الذين انكشفت لهم الحقائق، واهتدَوا من الكون إلى فاطر الكون، وسعدوا بالمشاهدة واليقين. ولقد قال قائلهم وقد رأى الشمس تغيب في الأفق: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْض

﴿حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وقد قيل عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[2].

حدثتنا هـذه الآيات عن سرّ الحياة، عن سرّ القوة والحـركة والنشاط، عن سرّ البهجة والأنس، عن سرّ الجمال الفاتن، عن سرّ كُلِّ ما في هذا العالم من حَسَن وجميل، وحيّ نامٍ.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ هذا هو النور الذي فاض على هذا العالم فأضاء الكون وأشرقت الأرض بنور ربها.

ولكنه نور لا كـالنور ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولكنـه لا يفهم إلا بالأمثلة الحكيمة البليغة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، ٱلـزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَـا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُـوقَدُ مِنْ شَجَـرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَةٍ﴾.

ولكن هـذا النـور لا يختص بجهـة دون جهـة، وبـإقليم دون إقليم، وبجنس دون جنس، وبـوطن دون وطن، إنـه فـوق الحـدود والجهـات، وفـوق الأرض والسمـاوات، وفـوق الشعـوب والأمم، والأجنـاس والأوطان، والأنساب والألوان ﴿رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَرَبُّ ٱلْمَشَارِقِ﴾[3]. وهذا رد على من خصص الله رب العالمين بشعب خاص، أو بوطن خاص، وضيَّقَ رحمة الله الواسعـة وجُوده العام.

فقـال ـ وهو يضـرب المثل لنـوره ـ: ﴿زَيْتُـونَـةٍ لَا شَـرْقِيَّـةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، ثم إنه في إفاضـة نوره وبث خيـراته وَجُـوده لا يفتقر إلى

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٧٩ ـ ٨٠. (٢) سورة الأنعام: الآية ٧٦.
(٣) سورة الصّافّات: الآية ٥.

الأسباب ولا يستعين بالوسائط ﴿يُضِيىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

إن هذا النور عام قد عم الكون، وعم الشرق والغرب، وأشرق على البر والبحر، والسهل والجبل، والحيوان والجماد، ولكن لا يهتدي إليه إلا من فتح الله بصيرته وشرح صدره للإسلام فعرف اللَّهَ معرفة صحيحة، وتوصل من الكون إلى فاطر الكون: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1]، وفكر في هذا العالم بنور من ربه فوصل إلى النتائج الصحيحة وطرب بها: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]، فالاهتداء إلى هذا النور سعادة لا ينالها إلّا من أدركته العناية الإلٰهية والهداية الربانية ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

هذه الهداية عن طريق الأنبياء والرسل الذين أكرمهم الله برسالاته وكتبه، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُماتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3]، ولذلك يقول المهتدون يوم القيامة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ، لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[4].

ويُبحَث عن كل شيء في محله ومركزه، ويبحث عن هذا النور وعن هذه الهداية في المساجد التي أسست على التقوى، وأقيمت للعبادة والذكر والعلم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

(١) سورة الزمر: الآية ٢٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩١.
(٣) سورة المائدة: الآيتان ١٥ ـ ١٦.
(٤) سورة الأعراف: الآية ٤٣.

ٱسْمُهُ﴾(١). ولكن الإسلام، ولكن كتاب الله لا يدعو إلى الرهبانية، إنه يدعو إلى الاشتغال، وأكل الحلال، إنه يمدح من يجمع بين الدين والدنيا في الدعاء: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(٢)، ويجمع بين التجارة والعبادة في الحياة بحيث لا تلهيهم التجارة والصفق بالأسواق عن أداء الفرائض والصلوات، وقد سماهم: الرجال، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ﴾(٣)، ولا تشغلهم زينة الحياة الدنيا، وصخب الأسواق عن تذكُّر يوم شديد عسير لا بد منه: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ، وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤).

---

(١) سورة النور: الآية ٣٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

(٣) سورة النور: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) سورة النور: الآيتان ٣٧ ـ ٣٨.

# قصور كبار عقلاء الغرب وفضلائه في علوم الآخرة ومعرفة الله تعالى والحقائق الدينية[1]

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾.

[سورة النمل: الآية ٦٦]

إنني أقول معتذراً، ولا أجرؤ على الاعتذار إلى منزّل القرآن الكريم والموحِي به، إنما أعتذر إلى بلاغة القرآن الكريم وإعجازه بقصور ترجمتي، وأقول: لقد حدث ثقب في علمهم في الآخرة. ولا أجد تشبيهاً وتعبيراً لوضع علماء الغرب ومفكريه وكشوفهم العلمية ورحلتهم الفلسفية والفكرية: أحسن وأجدر من هذا التشبية والتعبير الذي يعبِّر عنه العامة Puncture ، كأن سيّارة تسير في طريقها وإذا بها يحدث خلل جليل يمنعها عن المسير، ويعوقها عن المُضيّ في الطريق، ويشلُّ جميع قواها، فلا أجد لذلك تعبيراً أو وصفاً أجمل من تعبير «بنشرت السيّارة».

انظروا كيف أن العلم الذي كان يسير سيراً حثيثاً ويقطع المسافات الشاسعة بكل طمأنينة وثقة، وقد جال وصال في الميادين

---

(١) ألقيت هذه الكلمة المرتجلة في ندوة رابطة الأدب الإسلامي العالمية في جامعة الهداية بمدينة «جيفور» ـ الهند.

العقلية والرياضية والطبيعية وما بعد الطبيعية، حتى إذا وصل إلى مبحث (واجب الوجود) من حيث ذاته وصفاته، والآخرة، والحياة بعد الموت: «ادّارك»، كأن العجلة بَنْشَرَتْ وأصبحت فارغة من الهواء. والألفاظ التي تلت هذه اللفظة في الآية الكريمة تعبر عن كيفيات العقلية الغربية المتناقضة المترددة الحائرة، وعن مختلف طبقات الغرب: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا، بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾.

والآية الكريمة الثانية التي جعلها الإمام ابن تيمية أساس مبحثه في كتاب «النبوّات» هي: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[1].

إن العقلية الغربية الفجة المختلّة تقول: إنّ كل ما هو غير مشهود: هو غير موجود. إن حصر الموجودات في المشهودات، لَمن عثرات العلم الإنساني والعقل البشري الكبيرة الهائلة، وقد صبغتها العقلية الغربية صبغة علمية فلسفية، وإن ذلك لَمِن سوء حظ البشرية وعدوانٌ ضدّ الإنسانية، وإن هذا هو الفرق الأساسي الكبير بين العلم المحروم من الفيض الإلٰهي السماوي وبين العلم المستنير بنور الرسالة السماوية. وقد بيّن ذلك سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بتعبير سَهْل واضح: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾[2].

وهذا هو واقع خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم على جبل الصفا، فقد كان بقمّة الجبل، والناس في سفحه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن وراء هذا الجبل جيشاً يريد أن يغزوكم، أكنتم مصدِّقيَّ؟» وقد كان العرب بدائيين متخلِّفين في

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٨١.

الفلسفة والمدنيـة ولكنهم أثبتوا تفـوقهم وفضلهم في سلامـة العقول والواقعية لمَّا رأوا أن الشخص الذي يخبـرهم بذلـك هو على رأس الجبل يرى أمامه وخلفه، وهو لا يكذب ويخون، فقالوا بلسان واحد: نصدقك يا محمد! فقد توصـل العرب بصـراحتهم وإدراكهم السليم للواقع إلى ما لم تصل إليه اليونان والرومان، ولم يصل إليه الغرب حتى الآن، فقد حسموا في الأمر ورأوا أنه لا سبيل للتكذيب بنـاءً على أننا لم نشاهد.



# حكمة لقمان وموعظة الإيمان

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[سورة لقمان: الآيات ١٣ ـ ٢٠]

سَجَّلت الصحف السماوية وسجَّلَ الأدب الديني مواعظ دينية كثيرة، منها هذه الموعظة اللقمانية، التي هي من أبلغ هذه المواعظ

وأجمعها، وقد تجلت فيها حكمة الأنبياء ودعوتهم في أجمل مظاهرها وأروعها، إذن لا غرابة إذا ضُرِبَ المثل بحكمة لقمان.

وجَّهَ هذه الموعظة والد أكرمه الله بالعقل الحصيف، والحكمة البالغة التي لا يؤتاها إلاّ الأفذاذ الراسخون في العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، وجهها إلى ولده وفلذة كبده، فجمعت بين شفقة الآباء وهداية الأنبياء، وقد انتقى الوالد الكريم العظيم لولده الحبيب الأثير، أصول الحكم وجوامع الكلم، وفضائل الأعمال، ومكارم الأخلاق، فجاءت موعظة فريدة يعمل بها العقلاء في كل عصر ومصر، فينالون سعادة الدنيا والآخرة.

بدأ لقمان في وعظ ابنه بالنهي عن الشرك، وقال في إيجاز وإعجاز: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ولا أبلغ في تصوير الشرك وتهجينه من أن يقال: إنه ظلم عظيم، إنه وضع العبادة في غير محلها، وتفريط في حق الله، وأيُّ تفريط في حق الله وإفراط في حق المخلوق: هو مجموع جنايات وجرائم تجمعها كلمة (الظلم). ومن أظلم ممن أعطى حق الله لعبيده، وترك مَلِكَ الملوك، وخضع للذليل المملوك، فكان كتشبُّث الغريق بالغريق، واستغاثة الرقيق بالرقيق، وحاجة الفقير إلى الفقير، ولجوء المريض إلى المريض؟!.

وقرن الدعوة إلى التوحيد بالدعوة إلى البِرِّ بالأبوين، ومعرفة حقوقهما، ولا سيما الأم التي كان جهادها أعظم في حضانته ونشأته ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وقد حثَّ الله على معرفة فضلهما وشكرهما لأن مِنَّتهما أعظم في المخلوق ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ولكن إذا زاحما حق الله وألحّا على الشرك، فلا طاعة لهما ولا كرامة، إذ «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولكن لا إهانة ولا إيذاء: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾، فلا بأس بالبر والمواساة، وصلة الرحم، أما الاتباع فلا يجوز إلّا لذوي الهداية والمعرفة والإنابة إلى الله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

ولما كان الجمع بين البر بالأبوين وبكل من له حق وفضل، وبين مفارقتهما ومجانبتهما في العقيدة وحقوق الله ـ برّ بالأبوين من غير إطاعة في الكفر والإثم، والثبات على التوحيد وعبادة الله من غير هضم لحقوق الوالدين ـ لما كان ذلك مهمة عسيرة دقيقة لا يطلع على زلّاتها إلّا العليم الخبير قال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثم ذكر في هذه المناسبة اللطيفة أن الله هو الجدير بالعبادة واللجوء والسؤال والدعاء، إذ لا بد لمن يُلجأ إليه، ويُعتمد عليه في قضاء الحوائج وإسعاف المطالب: أن يحيط علمه بالدقيق والجليل، ويطلع على الضمائر والخواطر، فقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ، إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

ثم دعا ابنه إلى أمور أساسية في الدين والأخلاق، إذا حافظ عليها الإنسان وأخذ بها كان عبداً صالحاً وعضواً كريماً في الأسرة الإنسانية، منها: إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على المصائب. ومنها: التواضع للناس، والسداد والاقتصاد في السيرة والسلوك. وكل مجتمع سادت فيه الصلاة التي هي حق الله على العباد والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والأمرُ بالمعروف والنهي

عن المنكر، والصبرُ، وكان أعضاؤه بعيدين عن التكبر والاختيال والإسراف والجفاء: كان مجتمعاً مثالياً ومجتمعاً فاضلاً كريماً يسعد به العالم وتسعد به الحياة.

وختم هذه الموعظة بذكر آلاء الله ونِعَمه السابغة الظاهرة والباطنة، التي توجب الشكر والعبادة والتوحيد، وتُنشِّط للعمل بهذه الموعظة المخلصة الرقيقة التي ألقاها عبد مخلص حكيم على ولده العزيز - وعن طريقه على ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ - فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾.

## كُفرانُ النعمةِ وحبُّ العسيرِ الشاقِّ طبيعةٌ مُعوجّةٌ مريضةٌ[1]

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا . . . ﴿١٩﴾﴾.

[سورة سبأ: الآيتان ١٨ ـ ١٩]

إن من مواطن الضعف في طبيعة الإنسان أنه إذا استمرّت به حال واحدة من النعمة والراحة والخير: يملّها ويسأمها ـ رغم ما تحمل له من لذة ورفاهية وراحة ـ ويريد التغيير والتبديل مهما كلّفه من ثمن باهظ وجرّ إليه البلاء والمحن. هذا هو الحال الذي أشار إليه القرآن الكريم بلفظة: ﴿بَطِرَتْ﴾ في قوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا. . .﴾[2].

وهذه هي قصة سبأ التي أنعم الله عليها بكل الخيرات وعبّد طرقها وملأها أمناً وراحةً: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾، فكفروا بهذه النعمة ولم يقدُروها حق قدرها:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[3].

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في صنعاء اليمن في شعبان سنة ١٤٠٤ هـ.

(٢) سورة القصص: الآية ٥٨. (٣) سورة سبأ: الآية ١٩.

ليس هذا من السَّفر في شيء! نخرج، نأكل ونشرب، ونتحدث وإذا بنا نصل إلى منزلنا، بل لا بد أن يكون السفر طويلاً ومع كلفة ومشقة، فكان أن سلب الله تعالى منهم نعمهم وخيراتهم وجعلهم أحاديث ومزّقهم كل ممزق.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

إنني أشعر في كثير من البلاد الإسلامية والعربية والمجتمعات الإسلامية بوجود هذا المرض (البطر)، فحيثما تلتفت تسمع هتافاً بـ (هل من مزيد؟ وهل من جديد؟). وليس هتاف: هل من مزيد بأشد خطراً من هتاف: هل من جديد، ومهما كانت الأوضاع والظروف، فإن أحب هتاف لدى الناس (عاشت الثورة). وليست هذه الهتافات إلاّ بمثابة أخطار وابتلاءات تَحيقُ بشعب أو بلاد، فلا يبقى أي تمييز بين الصالح والطالح، والأمن والفساد، والنصح والغش، ولا يبقى أي تفكير في العواقب والنتائج. إن هذا المنهج من التفكير وهذه النفسية المتقلبة التي لا تستقر على حال مصدر خطر كبير، وقد يؤدي إلى مصير قوم سبأ من الدمار والهلاك:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَار ٱلْبَوَارِ﴾[2].

---

(١) سورة سبأ: الآية ١٩.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

# حِكَمُ الله في فترة الوحي، ونِعَمه على رسوله العظيم
## دراسةٌ لسورة (الضحى)

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾.

[سورة الضحى: الآيات ١ - ١١].

إن أسلوب هذه السورة يرشد إلى أنها نزلت في فترة الوحي تسلِّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتذكر سابق منن الله سبحانه عليه، وقديم عنايته به، من الإيواء والهداية والإغناء، ما يصعب معها الترك البتّة والغفلة. وهو الذي تؤيده روايات سبب النزول، فقد اتفقت على أنه حصلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فترة في توالي الوحي فظن أو قيل: إن الله قد تركه وقلاه، مع اختلاف في الظانّ أو القائل، وليس يَهُمّنا التعيين والتسمية، ولا يبعد أن النبي ﷺ ظن بنفسه أو خاف، فقد كان للنبي ﷺ شوق زائد وتطلُّع إلى الوحي، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

وكلُّ شوق ـ كما قال الشيخ محمد عبده ـ يصحبه قلق، وكلُّ قلق يشوبه خوف.

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ حزن لفترة الوحي حزناً، غدا منه مراراً كي يتردّى من شواهق الجبال، ولكن كان يتمثل له الملَك ويخبره بأنه رسول الله حقاً. وقع له ذلك بعد نزول سورة ﴿اقْرَأْ﴾. وقد كانت تطول هذه المدة، فلا عجب أنه خاف انقطاع هذه النعمة الجليلة، فالعبد إذا أنعم عليه السيد أو ملِك جليل بنعمة جليلة: خاف في كل لحظة أن تُقطع عنه أو تسلب، إذا كان المُنعِم قادراً عليه، والله سبحانه قادر، وقد قال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً، إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾[1]، فآتاه الله رحمة من عنده كان يشتاق إليه، ووعده ببقائه في المستقبل أيضاً، وأذهب عنه ما كان يجده ويخافه، وأقسم عليه بالضحى، وهو ضوء الشمس في شباب النهار، ثم بالليل إذا سجى، أي سكن، وأشار به إلى أن الوحي بمنزلة النهار، تقوى فيه الحياة الروحانية وتنمو وتشتغل، كما تقوى في النهار الحياة الجسمانية، وقد تعقُبه الفترة كما يعقب النهارَ الليلُ، تستريح فيه القوى وتستعدُّ النفوس لما يستقبلها من العمل وتتوق له.

وفي ذلك حكمة بالغة وأصل عظيم من أصول التربية وتشويق لتلقّي العلم وإعداد له. وفي الحديث: كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة (أي يعظنا غِبّاً)، كراهة السآمة علينا. وإلى هذه الحكمة أشار الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ

---

(١) سورة بني إسرائيل: الآية ٨٦.

وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1]. وقد حكى الله سبحانه عن الكفار قولهم وردَّ عليهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2].

﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلأُولَى﴾ أي: إن الكرَّة من الوحي خيرٌ لك من المرَّة الأولى، فسيكمل بها الدين، وأين بدء الوحي من عوده؟ وأين الإجمال من التفصيل؟ حتى أعلن: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلإِسْلَامَ دِيناً﴾[3].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾: في الدنيا والآخرة، وقد أعطاه فرضي. فقد أكمل له الدين، ولم يكمُل لأحد قبله من النبيين، وجعل له لسان صدق في الآخِرين، وفتح له الفتح المبين، وأنجز له في حياته كل ما وعده، وقرّ عينه، وأنعم باله برؤية ألوف من أتباعه الموحّدين الراسخين وعباد الله الصالحين، والجنود المجنّدة من المجاهدين المخلصين، ولهذا لما قال له أصحابه في قيامه بالليل حتى كانت تتورم رجلاه: ألم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟».

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾: معلوم أن النبي ﷺ توفي والده وهو في بطن أمه، فلما أرضعت له كفاها الله المؤنة، ونشأه أحسن ما ينشأ الولد في حِجْر أبيه، وصنعه على عينه، وتقبّله بقبول حسن، وأنبته نباتاً حسناً وكفله جدّه، وما أدراك ما جدُّه؟ ثم عمّه، وما أدراك ما عمّه؟

وما ظنك بطفل يموت والده وهو حمل، ثم تموت أمه وهو ابن

---

(١) سورة بني إسرائيل: الآية ١٠٦. (٢) سورة الفرقان: الآية ٣٢.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣.

ست، ثم يموت جده وهو ابن ثمان، ولكن مع ذلك لا يجد من البؤس والشقاء وما يتحمل الأيتام من ظلم وجفاء شيئاً؟! أليس هذا من فضل الله سبحانه ولطفه وإيوائه وولايته وكفالته؟

﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾، هذه المِنة أكبر الثلاث التي منّ الله سبحانه بها على النبي ﷺ، إذ المِنّتان تتعلّقان بالجسم والدنيا، وهذه تتعلق بالدين والروح، بل بالعالم، لأن هدايته كانت موقوفة على هدايته، كنور العالم على طلوع الشمس كما قال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1].

والضلال أنواع: منها الحيرة والتردد، وقسط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منهما قبل أن تشرق عليهم شمس النبوة والحقيقة: أوفر من قسط غيرهم، كقسطهم من الهداية.

وقد حكى الله سبحانه عن خليله الموحّد الأكبر في محاجّته لقومه وإبطال شركهم ما يدلّ على رسوخه في الهداية، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِيْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ آلسَّمَوَاتِ وَآلأَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ آلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ آللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً، قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ آلآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى آلْقَمَرَ بَازِغاً، قَال هَذَا رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2].

وقد نشأ ﷺ موحّداً وكان من طبيعته، غير مقتنع بما عليه قومه وموقناً بفساده، ولم تكن بين يديه شريعة كاملة محفوظة، أو كتاب يصحُّ أن يُسمَّى كتاباً إلهياً، لكثرة التحريف كالتوراة والإنجيل. وكان

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.
(٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٦ - ٧٩.

يختلي بغار حراء، يتحنّث فيه ـ أي يتعبد ـ كما قالت عائشة رضي الله عنها، ويتفكر ويتدبر، فكان يحتاج إلى تأييد من الله سبحانه وإرشاد وبيان، وكان عَطِشاً إلى الوحي، وإذا نزل المطر والأرض عطشى تكون أقبل له وأكثر انتفاعاً به.

وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الدور، بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ، وَلَا ٱلإِيمَانُ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[1]. فانظر كيف سمّى الوحي نوراً وهداية، وكيف قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلإِيمَانُ﴾ وهو الضلال الذي ذكّره به في سورة الضحى. وليس ما ذكره الله سبحانه نقصاً أو عاراً للنبي ﷺ، بل هو فخر له، وإكليل مجده، كما قال الشيخ محمد عبده[2].

ولا ينبغي أن نقيس الأنبياء علينا، فقد ورثْنا الإسلام عن آبائنا وسلفنا كما يورث المتاع والمال، وانتقل إلينا كالعوايد والتقاليد والبضائع، وجاءنا عفواً بدون تعب، ولم ندفع له ثمناً ولم نتجشّم فيه عناءً ولم نُعمل فيه فكراً، ولم نسهر فيه ليلة، ولم نُشك فيه شوكة، ولم نُسِل فيه قطرة من عرق فضلاً عن دم. أما الكُمَّل من الرجال، والفحول والأبطال، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون، فهم يجاهدون فيه حق الجهاد، ويُبْلَوْن كل البلاء ويأتيهم على سنة الله وعادته، وكذلك أصحابهم.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ الظاهر أنه على ظاهره فقد كان النبي ﷺ فقيراً، لم يترك له والده إلّا ناقة وجارية، فوهبه الله من

(١) سورة الشورى: الآية ٥٢.

(٢) وقد تكلم هاهنا وفي سائر سورة الضحى بكلام المتفقّهين للقرآن العارفين بالنبي ﷺ وسيرته.

الملك والقـوة والأصحاب الـذين كانـوا يفدونـه بـأنفسهم ونفـائسهم ومهجتهـم ما لم يرزق نبي قبله ولا يرزق رجل بعده. أما سليمـان عليه السلام فقد سخّر الله له الجن دون الإنس. ولا يناقضه أنه كان ـ خصوصاً في المدينة ـ يرى هلالاً وهلالين وأكثر، ولا توقد في بيته نار ولا يجد لعياله قوتاً، فقد كان هذا فقراً اختيارياً، لا اضطرارياً، ففي حديث الترمذي عن النبي ﷺ: «عَرَضَ عَليَّ ربّي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ـ أو قال ثلاثاً، أو نحو هذا ـ فإذا جعتُ تضرّعتُ إليك وذكرتك، فإذا شبعت شكرتك وحمدتك»، وكان النبي ﷺ أغنى العالمين قلباً، والغِنَى غنى القلب.

والمقصود أن من آواك في اليتم، وهداك من الضلال، وأغناك من الفقر: لا يتركك البتة في مستقبل الأمر، والعاقل يغرس الغرس ويسقيه ويخدمه، ويسهر عليه ويُعنىٰ به، فإذا آن أن يثمر، ويُؤتِي أُكُلَه لا يهمله. فلهذا اليوم ربّاه الله وغذّاه، وأغناه وآواه، وكان ضالاً فهداه، فكيف اليوم ينساه؟!

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، ما أجمل موقعه بعد قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوىٰ﴾، فمن ذاق مرارة اليتم بنفسه، فأخلِقْ به إذا كان ذا شعور ومروءة أن يستشعرها في غيره، فاليتيم أعرف خلق الله بحال اليتيم، وأعرف بما يذوقه ويتحمله، فإنه قد اجتاز هذه المرحلة أيضاً، فأراد الله سبحانه أن لا ينسى يتمه مهما طال عهده به، وأن يستحضره عند رؤية اليتيم.

ولعله لهذه الحكمة وُلـد رسول الله صلى الله عليـه وآله وسلم يتيماً، ونشأ يتيماً، ورعى الغنم في بني سعد، ليكون للأيتام والبؤساء

أباً شفيقاً ووالداً بَرّاً، ويرقُّ قلبه وتنشأ فيه عاطفة الشفقة والحنان، شأن الأيتام.

كما أن موسى عليه السلام رعى لشعيب غنمه عشر حِجَج، ليعلم حقيقة ما يكابده بنو إسرائيل من خدمة فرعون ومعاناة الأعمال الشاقة، ويشعر بألَمِهِم وبؤسهم وشقائهم، ويعلم أنه إذا كانت هذه خدمة نبيّ خير عباد الله، فكيف بخدمة جبّار شر عباد الله وأقساهم، فتسمو نفسه إلى تخليصهم وتحريرهم، لأنه نشأ في أكبر نعمة ورفاهة وراحة، في قصر فرعون وحجره، لا يعرف ما يكون عليه العبيد والأرقّاء والمستضعفون، وما يعانون من آلام الحياة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، فقد كنت سائلاً ولم ينهرك الله سبحانه، وقد شق عليك تأخير الوحي وتأخير الإجابة دون نَهْرٍ ولا يأس، فاستشعر بمثل هذا في غيرك أيضاً.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فمن عادة البخلاء أنهم يكتمون ما آتاهم الله ليكون لهم عذر وسلامة، وقد قال النبي ﷺ للذي رأى عليه ثياباً رثة وقد علم غناه: «إن الله يحب أن يَرَى أثر نعمته على عبده».



# خلاصةٌ وافيةٌ وعرضٌ جميلٌ للسيرة النبويّة الطّاهرة في سورة (الانشراح)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

[سورة الانشراح: الآيات ١ ـ ٨]

يظهر أن هذه السورة كسورة الضحى، نزلت في عسر وضيق، وكان النبي ﷺ مهموماً، ولم يكن هذا نادراً ولا غريباً لمثله عليه الصلاة والسلام، ولمُهمَّته، ومقاصده، وعظمته. وقد حدّث القرآن عن همه كثيراً، فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[1]، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي ٱلسَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ. . .﴾[3] الآية، وقال ﷺ: «لو كنتم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، وكان يقول: «شيَّبني قومك يا عائشة». فنزلت السورة تخفف عنه بعض ما يجده

(١) سورة الكهف: الآية ٦.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٣.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

وتنفّس عنه كربته، وتذكّره من نعم الله سبحانه عليه الدائمة الباقية إلى يوم القيامة العظيمة الجليلة ما ينسيه بعض همومه العارضة الزائلة، وإليه إشارة في قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ وفي الاستفهام الذي للتقرير.

ويظهر أنها نزلت بعد نجاح وتوفيق وإعانة من الله سبحانه، فقد قال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ. ٱلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ شرح الصدر: بسطه وتوسيعه وتفسيحه وترحيبه، وهو من الكلمات البالغة الوجدانية الذوقية التي يصعب ترجمتها وتفسيرها، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1]، وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّد في السماء﴾[2].

وقد أورد بعض المفسرين في تفسير هذه الآية قصة شقّ الملائكة صدر النبي ﷺ وغسلهم إياه وحشوه إيماناً وحكمة ونوراً وطمأنينة ثم خيطه، ولكن ظاهر الآية لا يشير إليها، فقد صرح بذلك بعض المحدثين، إلا أنه لا يبعد عقلاً أن يكون شرحاً حِسّياً أخص بالنبي ﷺ.

وقد أكمل الله لنبيه ﷺ شرح الصدر إذ لا يتأتّى عمل جليل في الدنيا بدون انشراح الصدر والإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم واليقين الكامل وقوة القلب والثقة بالمبدأ، وما عمل في الدنيا متشكك ومرتاب شيئاً، بل المتشككون أكسل الناس وأقعدهم وأبخسهم، ليس

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٢. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٦.

لهم همٌّ في الحياة ولا سرور، ولِذا تراهم يقتلون أنفسهم وينتحرون، ويعيشون ـ إن عاشوا ـ مهمومين متضايقين متضجّرين. فشرح صدره أوّلاً للنبوة والرسالة، وأخرج حظّ الشيطان منه، ثم أكمل له الأسباب التي يحصل بها انشراح الصدر واتساع القلب، وربـاطـة الجـأش وطمأنينة النفس ونعومة البال وقرة العين وحياة الروح.

وقد ذكر أكثر هذه الأسباب الإمامُ ابن القيم في كتابه النفيس (زاد المعاد) بكلام كله حكمة وتجربة ننقله بلفظه، قال رحمه الله:

(**وأعظم أسباب شرح الصدر**: التوحيد وعلى حسب كماله وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾، فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه.

**ومنها**: النور الذي يقذفه الله في قلب العبد وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسّعه ويفرح القلب، فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج وصار في أضيق سجن وأصعبه. وقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دخل النور القلب انفتح وانشرح»، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟! قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله»، فيصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسّي، والظلمة الحسّية، ذلك يشرح الصدر وهذه تضيقه.

**ومنها**: العلم فإنه يشرح الصدر ويوسّعه حتى يكون أوسع من

الدنيا، وليس هذا لكل علم، بل العلم الموروث عن النبي ﷺ، وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدراً وأوسعهم قلوباً وأحسنهم أخلاقاً وأطيبهم عيشاً.

**ومنها**: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك، حتى يقول أحياناً: ليتني كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فإني إذاً في عيش طيب. وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب، ولا يعرفه إلّا من أحسَّ به، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح، ولا يضيق إلّا عند رؤية البطّالين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حُمَّى روحه...). ثم قال:

(**ومن أعظم أسباب شرح الصدر**: دوام ذكره على كل حال، وفي كل موطن، فللذكر تأثير عجيب في انشراح الصدر ونعيم القلب، وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه.

**ومنها**: الإحسان إلى الخلق ونفعه بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً وأطيبهم نفساً وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً وأنكدهم عيشاً وأعظمهم همّاً وغمّاً، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً للبخيل والمتصدق، مثل رجلين عليهما جُنّتان من حديد، كلما هَمَّ المتصدق بصدقة اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفى أثره، وكلما هَمّ البخيل بالصدقة لزمت كلُّ حَلْقةٍ مكانَها ولم تتسع عليه، فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه.

**ومنها**: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدراً وأحصرهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له ولا نعيم إلّا من جنس ما للحيوان البهمي، وأما سرور الروح ولذتها وابتهاجها فمحرم على كل جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل مُعرِض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته ودينه متعلق القلب بغيره.

**ومنها**، بل أعظمها: إخراج دَغَل القلب والصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره ولم يُخرِج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه.

**ومنها**: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل آلاماً وغموماً وهموماً في القلب تحسره وتحبسه وتضيقه ويتعذَّب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها). ثم قال:

(والمقصود أن رسول الله ﷺ أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر واتساع القلب وقرة العين وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا الشرح وقرة العين، مع ما هو أخص به من الشرح الحسّي، وأكمل الخلق متابعة له أكملهم انشراحاً ولذة وقرة عين، وعلى حسب متابعته ينال العبد من انشراح صدره وقرة عينه ولذّة روحه ما ينال، فهو في ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتّباعه، والله المستعان).

انتهى.

وتفقّد بعد ذلك سيرته في القرآن والحديث والتاريخ، تجدْ هذه الأشراط والصفات فيه بكمالها وتمامها، فهو الموحّد الأول والموحّد الأكبر، وهو القائل: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وهو السائل المستجاب: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، واجعل من فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً. اللهم أعطني نوراً، واجعل لي نوراً، وفي عصبي نوراً، وفي لحمي نوراً، وفي دمي نوراً، وفي شعري نوراً، وفي بشري نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً، واجعلني نوراً».

وكان له من العلم النافع النصيبُ الأكبر والحظ الأوفر، وكان يقول في بعض أدعيته: «اللهم زدني علماً، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسمَع».

وأما الإنابة إلى الله ومحبته بكل القلب والإقبال عليه والتنعم بعبادته، فقد كان نبي الله ﷺ مثلاً وأمة فيها، والعُبّاد فيها إلى يوم القيامة متمسكون بأهدابه ومتطفّلون على مائدته. فقد كان أوّاباً منيباً رجّاعاً إلى الله، مقبلاً عليه بقلبه وقالبه، محبّاً له بكل القلب، ما تركتْ

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤.

فيه المحبة موضعاً ومساغاً لغيرها، وجرت منه مجرى الروح والدم، واختلطت باللحم والعظم، متنعّماً بعبادته متغذّياً متسلّياً متلذّذاً، يقول: «أَبِيتُ عند ربي، يطعمني ويسقيني»، ويقول: «جُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة»، ويقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال».

وكان دائم الذكر، يذكر الله قائماً وقاعداً وعلى جنبه، وكان لا يزال لسانه رطباً بذكر الله، وكانوا يعدُّون له في مجلس واحد مائة مرة: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم»، ويقول: «تنام عيني ولا ينام قلبي».

وأما الإحسان فحسبك به أنه هو المنقذ الأكبر والمحسن الأعظم للنوع الإنساني كافة، وسفينة نوح له إلى يوم القيامة. وقد كان أعظم الأنبياء والمصلحين والمنقذين والفاتحين: قرة عين وطمأنينة نفس وراحة بال وسرور من هذا الوجه، فقد حصل له من النجاح والتوفيق، ما لم يُقَدّر لأحد منهم، ولم يحلم به، وما أدهش العالمين. فلا تسأل عن قرة عينه وطمأنينة نفسه وسرور قلبه، ولم يلحق بربه حتى رأى غرسه قد أينع وأثمر وآتى أُكُلَه، وطَهَّرَ أرض الجزيرة فصارت لا يُعبد فيها إلّا الله وحده، وطأطأت الرؤوس بين يدي الله. وخرج في يومه الذي توفي فيه إلى المسجد، فكشف ستر حجرته، والمسلمون صفوف في صلواتهم، فتبسَّم يضحك، وما أجمع هذه البسمة الطاهرة لمعاني سرور القلب والروح، والطمأنينة والارتياح والاستبشار، وما أحقَّه بذلك من كل نبي ومصلح، وملك وفاتح! فما أعظم الانقلاب وما أعجله! وما أحكمه!

وأما جوده وسخاؤه وإحسانه إلى الناس، فقد كان أعلن أن من مات من المسلمين وعليه دَينٌ فهو عليه يقضيه عنه، ومن مات وترك

مالاً فهو لورثته. وقال أنس بن مالك: (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، وجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً ﷺ يعطي عطاءَ مَنْ لا يخشى الفاقة)[١]. وعن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير)[٢].

وأما الشجاعة فعن أنس بن مالك قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الناس وكان أجود الناس وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عُرْيٍ، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تُرَاعُوا لم تُرَاعُوا. قال: وجدناه بحراً، وإنه لبحر، قال: وكان فرساً يبطأ)[٣]. وناهيك بالشجاعة أنّ مِثلَ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: (كنا إذا اشتدَّ البأس نتقي برسول الله ﷺ)[٤]. وقد ثبت ﷺ يوم حنين وقد تزعزعت الجبال الراسيات وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»[٥]. ووقعة الشجرة يوم غطفان خير شاهد عليها.

وكان رسول الله ﷺ قد غسل الله صدره حقيقة، وأخرج حظّ الشيطان منه، وحشاه نوراً وإيماناً وحكمة، ووقع ذلك بيد الملائكة أو لم يقع، فهو متواتر في سيرته في مكة والمدينة، وقد شهد به الأعداء، فما أضمر لابن آدم سوءاً، وما ترقب له فرصة ينتقم منه فيها، ولما منحت له قال: «لا تثريب عليكم اليوم».

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) مسلم عن أنس رضي الله عنه.
(٤) متفق عليه.
(٥) اللفظ لمسلم.

ويقول ناعتوه: إنه كان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، وكان لا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلاّ فيما يرجو ثوابه، وهو القائل: «من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وكان يقول: «أمرني ربّي بتسع أوصيكم بها ـ وفيه ـ: وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً»[1]، و «كان جل ضحكه التبسم بل كله التبسم»[2]، فأين الضحك الذي يميت القلب؟ وكان يقول: «لو كنتم تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[3].

﴿ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك﴾ معلوم أن مهمة النبي ﷺ في هذا العالم ـ لا في شبه جزيرة العرب خاصة ـ كانت مهمة لم يعرف تاريخ الإنسان وتاريخ الإصلاح مهمة أجلَّ وأكثر خطباً ومؤنة منها، فإنه كان يقصد تبديل الأرض غير الأرض، وأهلها غير أهلها.

وإننا إذا أردنا أن نصلح فرداً من الأفراد أو نغير عقيدة من عقائده، أو عادة من عاداته، كم نلقى منه عَرَق القِربة، وربما لا نستطيعه في سنين، فما ظنك بإصلاح أمة بل أمم، بل المجتمع الإنساني عامة، والهيئةِ البشرية كافة، خُلُقها، وعقيدتها، واجتماعها، ودينها، ودنياها، وحياتها، ومماتها؟!

بل نقل الجبال من مكانها، وصرف البحار عن مجاريها لأهون بكثير من زعزعة الأمم من عقائدها، وعوائدها، وتقاليدها التي ورثتها عن آبائها، ونشأت عليها وتربَّت، وتعضُّ عليها بالنواجذ، وتقاتل دونها

---

(١) و (٢) و (٣) اللفظ للبخاري.

موصدةً باب التفكير، وقالت: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[1]، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[2]، ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[3]، ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[4]. فوالله لإنشاء أمة بأسرها وتربيتها أهون من تقويم هذه الجذوع اليابسة المعوجّة.

وما ظنك وقد كانت الأمة التي بدأ بها رسول الله ﷺ عمله أصلبَ أمم الأرض عوداً، وأبطأها وقوداً، وأشدَّها تقليداً وجموداً، إن تحرَّجتُ أن أقول: أقلها استعداداً لقبول الحق، وأكثرها عناداً للإصلاح.

ولم تكن مهمة النبي ﷺ الهدم فقط بل كانت مهمته البناء أيضاً، فكان يهدم من الأساس ويبني إلى الرأس، هدماً حفيّاً وبناءً قوياً، فغسلهم أولاً ثم صبغهم، وكانوا في نشأتهم الثانية (الإسلام) أشد تصلُّباً وأكثر رسوخاً منهم في الأولى (الجاهلية).

والذي يعرف عدد المسلمين اليوم وهو يبلغ خمس عمران العالم لا يكاد يتصور ما كان يعاني الرسول عليه الصلاة والسلام في إسلام فرد من المشقة، وما كان يلقى من المطاردة والجفاء: ما تتزعزع له الجبال وتفتر له عزائم الأبطال.

فذلك هو الحمل الذي أنقض ظهره، وأكثر همه، ونغَّص عيشه، ومنعه نومه وطعامه وشرابه، ويتجلى لك هذا في دعائه المشهور الذي هو آية في الرقة والتأثير، وهو خير تصوير لما كان عليه ﷺ في ذلك

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٠.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٣٣.
(٤) سورة حمّ السجدة: الآية ٢٦.

الوقت من التأثر والتألم. وقد دعا به وشكا فيه بثّه وحزنه إلى الله وهو راجع من الطائف وقد عامله أهلها شرّ ما عامل به قوم منقذهم: أقاموا له السماطين وأغروا به الأوباش والأطفال فرمَوه بالحجارة حتى أدمَوا كعبيه، فما كادتا تخرجان من نعليه، وحمله زيد بن حارثة، ولم يجد أذناً صاغية ولا رجلاً رشيداً، فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى مَن تكلني، إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدوّ ملَّكتَه أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له الظلمات وصلَح عليه أمر الدنيا والآخرة: من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فأطْبِقِ العين وأنت تراه راجعاً من الطائف، ضعيف القوة، قليل الحيلة، هيناً على الناس، ثم افتحها. وهل المدة التي بين الطائف والمدينة في التاريخ: إلا قدر ما تطبق عينك وتفتحها، تلك المدة القصيرة التي أدهشت العقلاء وحيرت العالمين ولا تزال. افتح عينك، تراه يتلقّى الوفود في المدينة، وفيها وفد ثقيف من الطائف شدّ إليه الرحال يعرض نفسه على الإسلام، وقد كان الرسول ﷺ شدَّ إليهم الرحل وعرض عليهم الإسلام، فأبَوا وجرحوه وأهانوه.

وإذا رأيته يمشي وحيداً في أسواق مكة: فانظر إليه في حجة الوداع، في طريقه إلى مكة، وفي عرفات خطيباً، وفي تلك الأسواق التي تعودت أن لا تراه فيها إلّا وحيداً: لا تقدر أن تراه لكثرة من حوله من الناس الذين يكادون يكونون عليه لِبداً.

ولو رأيته في آخر يوم في الدنيا، وقد خرج من حجرته إلى المسجد، والمسلمون صفوف في صلواتهم ناكسو رؤوسهم أمام ربهم: لرأيت العجب العُجاب، أفلا تصدق قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. ٱلَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾؟

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ هذه نبوءة من نبؤات القرآن الباهرة المعجزة التي تدعو كل منصف ومطّلع على التاريخ وسيرة عظماء البشر إلى الإيمان به. فقد اتفق المنصفون ولا يكابر الجاحدون في أن هذه ميزة لنبي الإنسانية ﷺ، لا يشاركه فيها أحد ولا يدانيه فيها غيره، لا من إخوانه الأنبياء والمرسلين، ولا من تلاميذه المصلحين والمنقذين، ولا من عبيده الملوك والفاتحين. فما من ساعة من ساعات الليل والنهار إلا ويصلي فيها ألوف من عباد الله، وغيره لا يخطر على البال في ذلك الوقت، وأنه يشاطر اسمُه والشهادةُ برسالته كلمةَ الإسلام، ويعلَن باسمه ويجهر عشر مرات (مرتين في كلّ أذان) رفيعاً عالياً على أرفع المآذن، في أكثر بقعة من بقع المعمورة كل يوم.

وهو مخدوم بالألسنة والأقلام، مُدوَّنةٌ سيرتُه ووقائعه من أول عهده بالدنيا إلى آخر عهده بها تدويناً لا يخطر على قلب بشر، وهنالك أقلام لا يؤمن أصحابها به، تجرَّدت لتدوين سيرته وتقييد وقائعه وفضائله، وكُتّاب ومؤرخون وشعراء من اليهود والنصارى والمشركين، انبرَوا لإظهار نواحي العظمة الإنسانية فيه وإطلاع أممهم على أحواله والإنصاف له.

وقد جاء في مجلة (المقتبس) العربية أن عدد ما كُتِبَ عن نبيّ الإسلام في مختلف لغات أوروبا يبلغ ١٣٠٠ كتاب، ولا شك أنه قد

زيد في هذا العدد زيادة كبيرة، فيقع في كل سنة من بعد الهجرة إلى المدينة أكثر من كتاب.

ويقول جان ديونبورت، أحد الكُتّاب الإنكليز المعروفين: (ليس هنالك أحد لا من المشترعين ولا من الفاتحين من يبلغ وقائع عمره في التفصيل والثبوت: وقائعَ محمد).

ويقول مرغليوث، وهو من الكاشحين لنبي الرحمة ﷺ: (المؤرخون لمحمد سلسلة لا يمكن أن تنتهي، والدخول فيها مفخرة).

وقال اسمث في كتابه: (محمد والمحمدية) بعد ما تكلم على الأديان الأخرى، وتاريخ أصحابها، وصفة معرفة العالم بهم: (ولكن في الإسلام يمتاز كل شيء، ليس هٰهنا ظلام، ولا سرّ، عندنا تاريخ نعرف به محمداً مثل ما نعرف لوتهر، وملتن)، إلى أن قال: (لا يمكن لأحد هٰهنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره، هٰهنا نور النهار الذي يسطع على كل شيء ويصل إلى كل أحد).

وقارن بعد ذلك بين نبيّ الإسلام ﷺ وبين أصحاب الديانات الأخرى، والأنبياء الآخرين، ومعاذ الله أن نريد انتقاصاً لهم أو حطّاً من شأنهم، ولكن نريد أن نبيّن مزية النبي ﷺ، فكثير من هؤلاء تاريخهم وسيرتهم عيال على قصص وروايات منظومة وأساطير متناقلة، وكثير منهم شُهرتُهم مَدِينة للقرآن والإسلام.

والأناجيل إنما هي تاريخ عيسى عليه السلام وهي أشبه بكتب السير عندنا، ولكن (لا في التفصيل والاستيعاب والاستقصاء)، ويا ليتها تبلغ كتب الحديث عند المسلمين (في اتصال السند والتنقيح). فالمعتبر المقبول من هذه الأناجيل أربعة كتب لا غير، وهذه الكتب

الأربعة ما اشتملت إلّا على وقائع الثلاث سنين الأخيرة فقط، ثم اتفقوا على أنه لم ير عيسى عليه السلام أحد من أصحابها، ويشكُّون بعد ذلك كله في صحة نسبة هذه الصحف الأربعة إلى جامعيها.

وقد دارت مناظرة في صحيفة شيكاغو الشهيرة (روبنكورت)، في موضوع أن وجود عيسى فرضي محض، جرت شهوراً عديدة، وكانت الحرب فيها سجالاً.

ويقول SMITH (اسمث): الذي يصح عن الدين - يعني كون أصله وبدايته مجهولة - يصح أيضاً من سوء الحظ عن هذه الديانات الثلاثة ومؤسسيها الذين نسميهم (تاريخيين)، لأنا لا نجد اسماً أحسن منه، نحن نعرف عن رجال الدين الأولين والأقدمين أقل ولعلنا نعرف عن الذين ضمُّوا جهودهم إلى جهودهم أكثر، نحن نعرف عن زردشت وكنفيوشس أقل مما نعرف عن سولن وسقراط، وعن موسى وبوده أقل مما نعرف عن إيمبروس وسيزر، في الحقيقة نعرف جزءاً من أجزاء حياة المسيح عليه السلام، من ذا الذي يستطيع أن يرفع الحجاب عن هذه الثلاثين سنة التي مهدت السبيل لثلاث سنين؟)، إلى أن قال: (ماذا نعرف عن أمّ المسيح وعن حياته البيتية، وعن أصدقائه الأولين وأواصره بهم، وعن ظهور مُهِمّته الروحانية التدريجي، أو طلوعها؟ كم تنشأ في أذهاننا أسئلة عن هذه الأمور التي لا تزال أسئلة، ولكن في الإسلام يمتاز كل شيء. . .) إلى آخر ما قرأت.

والحقيقة أن هذا لم يكن إلّا بقدر ونظام، فالله سبحانه لم يحفظ إلّا ما كان مفيداً ومهماً ولم يكن ولا يكون عنه للعالم غنى، فسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بعد القرآن، لا يستغني عنها العالم دقيقة واحدة، وهو دليل على كون محمد ﷺ هو خاتم النبيين، والقدوة

للعالم، فيجب أن تبقى آثاره محفوظة وسيرته مضبوطة ومشهورة، وأن يبقى هو حيّاً يُقتَدى به.

هذا كل ما قلناه في الكمية، أما الكيفية فهي أدهش منها، فلا يمكن أن نعرف عن آبائنا الأقربين وعن رجال الأمس، بل وعن إخواننا الذين عاشرناهم وعرفناهم، وعن أترابنا: ما يمكن لنا بكل سهولة أن نعرف عن نبي التاريخ محمد ﷺ الذي مضى عليه أكثر من ثلاثة عشر قرناً: قيامه وقعوده، وانتباهه ورقوده، وليله ونهاره، وصبحه ومسائه وضحكه وبكائه، وكلامه ومشيه، وأكله وشربه، ورضاه وغضبه، وصلحه وحربه، وسفره وحضره، وحديثه وسمره.

وهل إذا سئلت عن مثل هذا وأكثر وأدق وأخفى من هذا، مما حفظته لنا كتب الحديث وكتب الشمائل، عن أبيك أو شيخك تجيب بسهولة؟!

فالكتب التي وضعت في أحواله تشتمل على كتب الحديث، وهي خير مرآة لحياته وخير ما يسمونه مذكرة و(الوقائع اليومية)، وكأنك بقراءتها تجالسه وتعاشره وتراه وتسمعه.

أما تنقيحها، وضبطها وبذل الطاقة البشرية فيها، وما أوتي الإنسان من مواهبه الفطرية، من حفظ وأمانة، و«دقّة»، فعن البحر حدّث ولا حرج، وهو مما تفردت به هذه الأمة واعترف لها به الحاسدون، والجاحدون، ومجنون من يبحث له عن نظير في أدب أمة، أو في خدمة أمة لنبيّها.

وليس النبي فحسب، فهو النبي الخالد، بل كل من وقع في سبيله، أو تعلق بذيله أو تعلق بذيل المتعلق بذيله وهلمّ جرّا: صار من

حق التاريخ وموضوع الدرس والعناية، وخرج من ظلمات الخمول، كالنور إذا أشرق أضاء السهل والجبل والأشجار والأحجار، وهذا الفن هو الفن الإسلامي المشهور، فن أسماء الرجال. وإليك قول العلامة الألماني المشهور الدكتور اسبرنجر في مقدمة كتاب (الإصابة) الإنكليزية: (ما كان في الدنيا أمة، ولا توجد الآن، أبدعت لنا فنّاً عظيماً، مثل فن أسماء الرجال: كالمسلمين، الذي من فضله يمكننا اليوم أن نطَّلعَ على ترجمة خمس مائة ألف رجل)[1].

وهؤلاء هم الذين وقعوا في إسناد، وحديث، وإن كان بينهم وبين النبي ﷺ مفاوز، ولكن ما وسع خَدَمة الدين والحقيقة الأَمَنَة إغفالُهم وجهلهم، فرفعوا اللثام عن وجوههم وأظهروهم بعجزهم وعلاتهم ومحاسنهم، وما راعَوا في ذلك قرابة ولا صداقة، وما منعتهم هيبة ولا أضلَّتهم شهرة.

وبعد كتب الحديث: كتب المغازي وكتب السير وكتب الدلائل وكتب الشمائل. ويكفيك أن تجول نظرة في محتويات كتب الشمائل فترى من الاستقصاء ما لا تتصوره، وترى ـ فيما ذكرنا من الكتب ـ آثار قدمه وخطواته محفوظة معلومة في أسفاره ومَقيله ومبيته ومنزله ومصلّاه، وإن شئت فانظر في أحاديث حجة الوداع، لا تجد مثله في أسفار العظماء.

والحاصل أن المسلمين لم يصوروا نبيهم ﷺ، ولم ينحتوا له تمثالاً من حجر كما فعل غيرهم من الأمم، لأن نبيهم نهاهم عن ذلك

---

(١) مما لا بد من ذكره، أن هذه الاقتباسات كلها منقولة من كتاب (خطبات مدراس) للأستاذ العلاّمة السيد سليمان الندوي.

أشـد النهي، ولكنهم صوّروه بـالكلام، ووصفـوه باللسـان والأقلام، وضبطوا شمائله ومخايله ضبطاً يغني عن كل تصوير يُعبد.

فمن نـظر في البَوْن الشـاسع بين سيـرة نبيّ ونبيّ، مع تـوفُّـر الـدواعي، رأى أنه لم يكن صـدفة، ولكن تقـديراً من الله سبحـانـه وإنجازاً لوعده.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾، فمَن مَنَّ عليك بهذه النعم الجليلة من شرح الصدر، ووضع الـوزر، ورفع الـذكر، سيكشف هذه الغُمَّة، ويأتي اليسرُ بعد العسر.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَـٱنْصَبْ. وَإِلَى رَبِّكَ فَـٱرْغَبْ﴾، أي اجتهد في العبادة، والقيام بحقوقه، وإلى ربّك فارغب.



## الإنسان بين السمو والانتكاس في ضوء سورة (التين)

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

[سورة التين: الآيات ١ ـ ٨]

سلك المفسرون في وجه اختيار هذه الأشياء من ثمر وشجر، وجبل وبلد، والحَلِف بها: مسلكهم المعروف في سائر أقسام القرآن، فعدُّوا للأولين منافع غذائية وطبّية، وآيات الله فيهما، وللآخرين فضائل ومناقب، ولا حاجة لربط قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ...﴾ وما بعده: بالأول، على قولهم.

أما أنا فلا أرى ـ والله أعلم بأسرار كتابه ـ إلا أن الله أقسم بهذه الأشياء استشهاداً، ومن التين والزيتون إشارة إلى منبتهما وأرضهما التي يكثران فيها، وهي أرض الشام، وهي مهد النبوة والأنبياء ومنبتهم، ومهبط الوحي والملائكة، وموطىء أقدام أولي العزم من الأنبياء فضلاً عن البشر، ومنهم عيسى ابن مريم عليهما السلام، ومشهد مِنن الله سبحانه ونِعَمه على الإنسان، واصطفائه إياه، وشاهد عين وسمع بما خصَّ الله الإنسان من نِعَم، وخلَقه في أحسن تقويم خُلقاً وخَلقاً.

وليس هذا القول ببدِع من التفسير وإلحاد، بل سبقنا إليه من قبلُ حبر الأمة، فقال: التين: بلاد الشام، وربما قال: بلاد فلسطين، وقال أيضاً: بيت المقدس.

وقد عدل كثير من أئمة التفسير ومراجعه من كونهما من المأكول إلى كونهما من المواضع والأمكنة، قال الضحاك: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقال قتادة: التين الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، وقال عكرمة وكعب الأحبار: التين دمشق، والزيتون بيت المقدس، واختاره ابن جرير. وقال محمد بن كعب: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيليا، وقال بعضهم: جبل الجودي، وقد يروى عن بعض السلف أيضاً واختاره الشيخ حميد الدين الفراهي. وبعض هذه الأقوال لا دليل له البتة.

أما كونهما من المواضع فقد دلَّ عليه السياق لأنه تعالى قرن التين والزيتون بطور سينين والبلد الأمين، فدلَّ النظم على كونهما اسمين لموضعين.

أما كون المراد المنبت، فالعرب يسمون الموضع باسم ما ينبت فيه كثيراً، كالغضا والشجر والنخلة، وليس ذلك خروجاً عن أصل المعنى، وإنما هو استعمالها في بعض وجوهها بطريق تسمية الظرف بالمظروف، قال النابغة الذبياني:

وهبّت الريح من تلقاء ذي أرل ... تزجي مع الليل في صرّادها صرما
صحب الظلال أتين التين عن عرض ... يزجين غيماً قليلاً ماءه شبما

وكذلك طور سينين والبلد الأمين، وهما معروفان.

فالطور هو الجبل الذي نال عليه إنسان ـ وهو موسى عليه

السلام ـ النبوَّة، وتشرف بكلام الله سبحانه وشهد تجليات الله. والبلد الأمين مكة، التي تشرف فيها إنسان آخر ـ وهو الآخِرُ ـ بالرسالة والنبوّة.

فكل هذه الأمكنة الطاهرة تشهد بمزية الإنسان واعتدال طبيعته واستعداده لأكبر مهمة وحمل أمانة النبوة، والنبوة لا يليق لها إلّا المعتدلون في الخَلق والخُلق[1].

والأنبياء يكونون أحسن الناس وأعدلهم وأوسطهم خَلقاً وخُلقاً، وهم من هذا النوع الذي يقال له الإنسان، فتشهد هذه المواضع بلسان حالها بصدق قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

قال الراغب: تقويم شيء تثقيفه، قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ وذلك إشارة إلى ما خُصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما في هذا العالم، وإلى هذا ينظر قوله تعالى: ﴿إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض. . .﴾ الآية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: صيَّرناه أسفل من كل سافل، وأسفل إما أن يكون ظرفاً أو مفعولاً به، أو حالاً. فهذا الجنس الذي كان منه محمد وموسى وعيسى والنبيون والصديقون والشهداء والصالحون: انحط بعض أفراده بأعمالهم حتى صاروا أرذل من الحيوانات والعجماوات والحشرات والجمادات، فكان منهم من ادعى الألوهية كفرعون، ومنهم من قلب الفطرة، ومنهم من مسخ الإنسانية، ومنهم من اخترع من الجرائم وابتدع من المآثم ما لا يخطر

---

(١) راجع (حجة الله البالغة) للإمام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي.

على قلب بهيمة وسبع، ولا يزال منهم من يبتكر أنواعاً وبدعاً من أساليب القتل والفتك بالإنسان، وآلات الدمار والهلاك، والغازات السامة، والسموم القاتلة، وأنواعاً من الخلاعة والعري والتهتك ما تخجل منه البهائم.

وقد بلغ هذا الإنسان في القساوة والضراوة بالدم - خصوصاً إنسان القرن العشرين - ما لم يبلغه سبع ولا حشرة، ولا يصدق هذه الآية ولا يؤمن بها عن بصيرة: إلّا من قرأ تاريخ بني جنسه أو شهده بأوروبا، ويعلم أن لم يبق الحيوان مضرب المثل فيما ننسب إليه ونستقبحه[1].

فالإنسان إذا انحرف عن فطرته وانحط من مقامه فمعاذ الله من شره، فلا تكون الحية والعقرب أشد إيذاءً وخطراً منه، ولا الذئب في الغنم بأخوف وأفسد منه، ولا القردة ولا الخنازير أشد خلاعة وفجوراً منه. وهذه الأنواع التي ضربناها مثلاً لا تحط عن مقامها، ولا تخرج عن فطرتها، وإنما هي تفعل كل ما تفعل بسائق الفطرة التي فُطِرَت عليها، ولا عذل ولا عتاب على الفطرة، ولكن الإنسان يمسخ فطرته ويقلب طبيعته.

وما ظنك بجنس لم يزل ولا يزال منه قوم ممسوخو الفطرة، منكوسو الطبيعة، وهل سمعت بأن صنفاً من الحيوان غير الإنسان يكتسب ويرتزق بعرضه وفرجه[2].

---

(١) راجع رسالة (الحضارة الوافدة وأثرها في الجيل المُثقَّف) للكاتب، طبع دار الصحوة بالقاهرة.

(٢) ومما يناسب ذكره، ولا يبعد في تفسير هذه الآيات ويدل على فقه العلماء الربانيين لهذه النكتة التي أشرت إليها، وعلى نشاطهم وحكمتهم في الدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: أن الشيخ العالم العامل إسماعيل الشهيد =

ثم استثنى الله ـ إنصافاً ـ منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أي: حافظوا على ما رزقهم الله من فطرة طاهرة زكية، وزكُّوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: ما يحملك على التكذيب بالجزاء مع أنك شاهدت مظاهره في هذه الحياة، فرأيت كيف يبلغ هذا الإنسان منزلة لا يبلغها الملائكة، ثم كيف ينحط بأعماله حتى يصير أسفل سافلين.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾: في معاملته مع الإنسان حسب أعماله وإيتاء كل ذي حقٍّ حقّه، من الدرجات العليا، أو الدركات السفلى؟ بلى! إنا على ذلك لمن الشاهدين. ويشهد معنا تاريخ الإنسانية، الماضي والحاضر، وقد شهدت قبلنا هذه الأمكنة، ولا تزال تشهد.

---

= رحمه الله، حفيد شيخ الإسلام ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي دخل يوماً في سوق المومسات (النساء المجاهرات بالفجور اللاتي يأخذن الأجرة)، فرآه رجل ممن يعرفه ويعرف صلاحه وعفافه وبيته، فتبعه يتفقد أمره، فإذا هو يقف على باب مومسة كبيرة وينادي بصوت المتسوّلين الطوّافين، فخرجت بنت ودفعت إليه دريهمات، فقال: لا، حتى تخبري صاحبة البيت أن الشيخ لا يبرح حتى يُسمَع نشيده. وكان في البيت عرس أو مأتم آخر، اجتمعت فيه زميلاتها ونساء السوق وأصدقاؤهنّ وزبائنهن من أهل المدينة، فأذنت له ودعته في المجلس ليتفرجن عليه، وقالت: هات يا أخا الترهات، فقرأ سورة والتين ثم جعل يفسرها، وكان رحمه الله قد أوتي حظاً كبيراً من التأثير وسحر الكلام، وفوق ذلك الإخلاص والنية. ولا بد أنه يكون قد فسر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وطبقها عليهن. فما أحسن اختياره! وما أكثر فقهه! فأجهشن بكاءاً وكاد يُغشى على بعضهن، فأخذ يحضّ على التوبة ويعدُّ فضائلها، فتُبنَ، وتابوا، ولم يبرح المجلس حتى زوَّج النساء بالرجال بعضهم ببعض.



# كنود الإنسان وسببه، وعبرة من الحيوان الأعجم، تأمل في سورة (العاديات)

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[1].

[سورة العاديات: الآيات ١ ـ ١١]

للمفسرين رحمهم الله أقوال في وجه الأقسام بالخيل ووصفها بصفات مخصوصة، كأقوالهم في سائر أقسام القرآن في غير هذا المقام، أحسنها: أن الله سبحانه أقسم بها متصفة بصفاتها التي ذكرها، آتية بالأعمال التي سردها، لينوّه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجِدّ ليُعنَوا بقيمتها وتدريبها على الكرّ والفرّ،

---

(١) اللغات:
العَدو: هو الجري، والضَّبح: صوت أنفاس الخيل عند جريها، وضبحاً: يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال، أي: ضابحات أو ذوات ضبح، أو مصدراً بفعل محذوف، أي: تضبح ضبحاً، الإيراء: إخراج النار بنحو الزناد، والقدح: الصك وهو ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد، أثرن به نقعاً: أي هيّجن غباراً في الضبح، لَكنود: لكفور، الخير: المال، وهو في القرآن كثير، بُعثر: نُشر وبُعث.

وليحمل أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل والإغارة بها كقوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1].

وهذا كلام حكيم ومعنى شريف، مطابق لروح الدين الإسلامي دين الرجولة الكاملة، والبطولة والفروسية والحماية، والأمان والسلام والجهاد النزيه الفاضل، جدّ مطابق، تعاضده الآيات العديدة، والأحاديث الكثيرة. بيد أنه مستقل لا يُفهم من ظاهر الكلام المبين ولا من سياق الآيات خصوصاً، ولا يرتبط بقوله: ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ الذي يظهر أنه عمود السورة وقطب الرَّحى، والذي من أجله سيقت الآيات التي وصف فيها الخيل.

وها أنا ذاكر بإذن الله وتوفيقه وجهاً آخر أرجو أن يشرح الصدر ويقر العين ويزيد في اللذة والحلاوة ويفتح عليك باباً جديداً من العلم والحكمة والفكر والعبرة، ولا غَرو فإنه قبس من هذا النور لا غير:

اقرأ هذه الآيات التي وصف الله فيها الخيل مع قوله: ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ مراراً مع خلو الذهن من كل ما قيل فيها: تتنبه سريعاً إلى نكتة كلما حمدت الله عليها كان قليلاً.

ترى أن الله سبحانه يصف الخيل في هذه السورة بأوصاف ويذكر لها أعمالاً، كلها ترجع إلى نقطة، وهي الوفاء والفداء والإيثار لسيّدها.

فهي التي تفديه بنفسها، وتشقى لنعيمه، وتموت لحياته، ولا تعرف لنفسها ولا لحياتها حقاً، ترمي بنفسها في الخطر، وفي النار والبحر، وتصبر على الجوع والعطش، وتتحمل المشاق: تعدو ضبحاً،

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠، تفسير الشيخ محمد عبده ملخّصاً.

وتوري قدحاً، وتُغِير صبحاً، فتثير بـه نقعاً، وتـوسط به جمعـاً، ولا تصوير أبلغ من تصوير الله سبحانه.

تفعل كل هذا مع ربها، وهو ليس لها برب، والذي هو من غير جنسها، والذي يستخدمها أكثر مما يخدمها، وهو الحيوان غير الناطق غير العاقل.

فكيف الإنسان العاقل الشريف مع ربه الحقيقي وولي نِعَمه، إن الإنسان لربه لكنود! فللإنسان عبرة في دواجنه وفي عبيده المسخرة.

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيْدٌ﴾ يشهد به لسان الحال ولا يجحد به بلسان المقال، وإن كذب اللسان فأحوال الإنسان وسيرته تصرخ بذلك وتنادي.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والعلة الطبيعية لذلك أن الإنسان لا يقدر أن يجمع بين الربَّيْن يعبدهما ويخدمهما: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَـوْفِهِ...﴾[1]، ﴿ضَـرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَجُـلاً فِيهِ شُـرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ، وَرَجُلاً سَلماً لِرَجُلٍ، هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً، ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فهذه السورة قد اشتملت على بيان المرض وهو قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱلإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وعلى علته وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وعلى علاجه وهو قوله: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَـا فِي ٱلْقُبُور...﴾ إلخ، فإن الإيمان بالآخرة وتذاكر الموت يكشف الغطاء عن العين، ويُفيق من سكرة الدنيا، قال النبي ﷺ: «أكثروا ذكرَ هاذم اللذات».

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٩.

# فهرس